

صوتان وجرح واحد

دراسة في شعر كمال ناصر



سنابل الكتاب

٥ ش صبرى أبو علم
باب اللوق - القاهرة

الإدارة:

(+٢٠٢) ٢٣ ٩٢ ٦٥ ٩٣

(+٢٠٢) ٠١٠٠١٠٩٤٣٠٢

المكتبة:

(+٢٠٢) ٢٣ ٩٣ ٥٦ ٥٦

E-mail

Sanabil_bookshop90@yahoo.com

Ahmed_mmorgan@yahoo.com

Face: sanabil bookshop

المدير العام

أحمد مرجان



مؤسسة الطويل للنشر والدراسات

٠١٠٠١٥٠١١٤٥

web: www.altawiel.com

e-mail: m_altawiel@yahoo.com

اسم الكتاب:

صوتان وجرح واحد
دراسة فى شعر كمال ناصر

المؤلف:

رضا الطويل

الغلاف:

حسين جيبيل

الطبعة الثانية ٢٠١٧

الناشر:

سنابل الكتاب

رقم الإيداع: ٢٠١٧ / ٢١٦١٤

التراقيم الدولى: 978-977-5255-28-0

حقوق الطبع محفوظة

صوتان وجرح واحد

دراسة في شعر كمال ناصر

رضا الطويل

إلى:

فاروق عبد القادر

وعبد القادر ياسين

إعزازًا وتقديرًا...،

رضا الطويل

زمن الشهادة

الإنسان والقضية
"إن أحلك ساعات الليل هي
الساعة التي تسبق الفجر".
(ك . ن)

خلال ساعتين ونصف من العاشر من أبريل / نيسان ١٩٧٣، تمكن فريق اغتيالات إسرائيلي - أكثر من ثلاثين عسكريا - في هجوم على مدينتي بيروت وصيدا، من قتل ثلاثة من كبار قادة المقاومة الفلسطينية، فعلى مدى هذه الدقائق المائة والخمسين، اغتيل كمال ناصر - الشاعر الأديب الصحفي المناضل السياسي - المتحدث الرسمي باسم المقاومة ورئيس تحرير فلسطين الثورة، ومحمد يوسف النجار، مسئول الشئون السياسية بمنظمة التحرير الفلسطينية، وكمال عدوان عضو المنظمة، كما أهدرت خلال هذه الدقائق حياة ثلاثة عشر مواطنا لبنانيا وفلسطينيا، وأصيب تسعة وعشرون آخرون إصابات قاتلة.

يأتي العاشر من أبريل بعد مضي تسعة أشهر ويومين على اغتيال غسان كنفاني في ٨/٧/١٩٧٢. تسعة أشهر دامية وقعت جرائمها الخسيسة على خريطة العالم، وكانت حمأة القتل قبل اغتيال كمال ناصر بشمانية أشهر وعشرين يوما قد حاولت اغتيال د. أنيس صايغ، مدير

مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية في ١٩/٧/١٩٧٢. ونجحت بعدها في ١٧/١٠/١٩٧٢ في اغتيال وائل زغيتر، ممثل منظمة فتح في روما بروما، وأصيب محمود الهمشري ممثل المنظمة بباريس في باريس في محاولة أخرى إصابة بالغة لم ينج منها؛ إذ استشهد متأثراً بجراحه في ٩/١/١٩٧٣، وكانت سلسلة الاغتيالات المكثفة التي بدأت بغسان كنفاني قد ذهبت فيمن ذهبت بهم أيضا من رجال المقاومة وقادتها، بشير أبو خير، ممثل فتح بقبرص، في نيقوسيا في ٢٥/١/١٩٧٣، أي قبل العاشر من أبريل بشهرين ونصف، كما امتدت هذه الجرائم إلى طرابلس الغرب - ليبيا - قبل ذلك التاريخ بخمسة أشهر ونصف في ٢٥/١٠/١٩٧٢ لتحاول اغتيال ممثل منظمة التحرير الفلسطينية - مصطفى عواد أبو زيد، فتصيبه إصابة قاسية تفقده إحصاره... إلخ.

لقد اعتبرت التحليلات السياسية اغتيال غسان كنفاني بداية لحرب سرية ينظمها ويقودها الميجور جنرال أهارون ياريف المستشار الخاص لرئيسة الوزراء الإسرائيلية - مائير - في ذلك الحين، بهدف تقليص قبضة المقاومة من أظافرها وقواها المحركة، ومما لا شك فيه أن هذه التحليلات لم تعن إلا بالنظر إلى مرحلة واحدة من مراحل الصراع الطويل بين العرب وإسرائيل، فهذه المذابح الصغرى لا تمثل رغم كثافتها وبشاعتها غير نقط دموية صغيرة على خريطة الصراع التي تمتد عميقا في غور السنوات الدامية إلى مذبحه دير ياسين في ٩/٤/١٩٤٨ وإلى ما قبل ذلك التاريخ بسنوات عديدة.

كما أن هذه التحليلات وإن أشارت إلى بصمات أصابع المخابرات الأمريكية الشديدة الوضوح، وبصمات المخابرات الأردنية الأقل وضوحاً في مذبحه أبريل ١٩٧٣، فقد تغالفت في تبسيطها للأمر عن ربط المذبحه الصغرى بمذبح أيلول الأسود الكبرى ١٩٧٠ - ١٩٧١. التي قضت على عشرين ألف فلسطيني - أو يزيد، لم يكن كمال ناصر بأول الشهداء، ولم يكن بأخرهم، لم يكن غير شهيد واحد من بين آلاف الشهداء الذين ارتوت بدمائهم شجرة الحرية العجوز التي لم تثمر، وكان في كل عمر وبكل عمره أحد الهنود الحمر العرب، كما كان يطلق على بني قومه.

سنوات المراهقة:

في عام ١٩٣٦ حملت الموجة الثورية - التي استمرت زهاء الثلاث سنين، في اجتياحها لفلسطين - كمال ناصر بسنواته الاحدى عشرة إلى خضم النضال الوطني، فاشترك تلميذ ببرزيت مع غيره من التلاميذ في المظاهرات العديدة التي انطلقت من أبنية المدارس إلى الطرقات لتعلن رفضها للاستعمار البريطاني والاستيطان الصهيوني.

وفي إحدى هذه المظاهرات ألقى البوليس البريطاني القبض على كمال ناصر، وأرسلوه بصحبة رجلين من رجالهم إلى والده حاكم رام الله في ذلك الحين، وعندما سألهما عما إذا كانا لم نجد أحداً غير ابنه من بين آلاف المتظاهرين ليلقيا القبض عليه، أجاباه بأدب جم بأنه هو الذي كان يقودها.

وليس بملفت للنظر أن تنوء سنوات الصبا والتلمذة بأعباء الكفاح، ففي أعقاب هبة البراق ١٩٢٩، دب النشاط بأوصال الحركة الوطنية، ومارت فلسطين بالحوية والثورة، طيلة السنوات العشر التي تلت الهبة.

ونشطت الحركة الطلابية تعبيرا عن هذا النشاط الوطني فعقد الطلبة أول مؤتمر لهم بعد الثورة مباشرة، وعقد المؤتمر الثاني في الصيف التالي. وحقيقة لم يكن عمر كمال ناصر وقتئذ يسمح له بالبروز في أمثال هذه المؤتمرات أو غيرها. أو المساهمة في نشاطها، ومع ذلك لا يجب أن يغيب عن الذهن أن المؤتمرات الطلابية نفسها أتت معبرة عن نشاط التلاميذ في المدارس، وليست موجهة لهذا النشاط، وكان لطلاب المدارس ولغيرهم من الصبيان والأولاد يد في المظاهرات واستمرار الإضرابات حيث كانوا في كثير من الأوقات نواة المظاهرات الارتجالية غير المنظمة.

إن شعلة الكفاح الوطني التي ظلت تضيء طيلة السنوات العشر التي سبقت الحرب العالمية الثانية وفتت لتلاميذ فلسطين نخبة من خيرة المعلمين الثوار، وتلقت أجيال الطلبة التوجيه الكافي والتوعية الثورية اللازمة في أتون التفاعل الثوري في بوتقة فلسطين المشتعلة.

ولا غرو أن يهتم المعلمون اهتمامهم الزائد بالأجيال الشابة، والتعليم أحد محكات التحدى لحكومة الانتداب البريطاني، وسياسة التعليم التي اتبعتها، كما أن التعليم أيضا أحد مسالك التسابق مع الوافدين الغرباء الصهاينة، وهذا ما يبدو ملموسا وواضحا في اضطراب عدد المدارس الأهلية الحرة بصفة منتظمة منذ عام ١٩٢٠، وفي إقبال

الأهالي في المدن والقرى على التبرع لإنشاء هذه المدارس. ويكفى أن نذكر للاستدلال أن بين هؤلاء المعلمين الشيخ عز الدين القسام والشاعرين إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود، وأن وجود مثل هؤلاء المعلمين الثوار بالقرب من صفوف التلاميذ كان مدعاة لتخوف حكومة الانتداب من تفشى الروح الثورية، وخاصة أن التقارير السرية التي توالي وصولها لأيديها امتلأت بالإشارات إلى ازدياد روح العداء والتنظيمات السرية الموجهة ضد الانتداب البريطاني. مما زاد من قلق الحكومة من هذه الظاهرة، ودفعها للتشريع عامدة لمنع معلمي المعارف، وموظفيها من العمل في التنظيمات الوطنية، وهو التشريع نفسه الذي دفع الشاعر عبد الرحيم محمود إلى الاستقالة عام ١٩٣٦ للاشتراك في النضال، وعلى الرغم من مناهضة حكومة الاستعمار لنشاط معلمي المدارس في المحيط الوطني، فإن هؤلاء استمروا في إيقاد الحماس وترسيخه في صدور التلاميذ وفي إذكاء روح العداء للاستعمار والصهيونية بشتى الطرق ومختلف السبل.

وإذا كانت المدرسة بمحركة الطلاب وثورية المعلمين، قد وضعت أقدام كمال ناصر على طريق الكفاح الذى استمر يغز السير فوق أشواكه إلى أن استشهد، فلقد ساهم المنزل في الدنوبه من المأساة، فلقد عرفت أقدام الشريدين والمطرودين من أراضيهم والعاطلين من العمال - الطريق إلى باب دار آل ناصر العريقة التماسا لرحمة جده القس الانجلياني أو خبرة أبيه ضابط البوليس. وتعرف كمال ناصر في جراحهم أبعاد المأساة، التي لم يكف الاستعمار البريطاني عن نسجها لبنى قومه،

منذ أن دخل الجنرال اللنبي القدس (١٩١٧)، مردفا خلفه فوق صهوة
الأسد الإنجليزي الأطماع الصهيونية، بمقتضى وعد بلفور. ويذكر
كمال ناصر فيما بعد مكانة والده ونشاطه واتجاهاته الوطنية بكثير من
الفخر والاعتزاز وهو ضابط الشرطة الذى عاقبته سلطات الانتداب
أكثر من مرة على مشاعره الوطنية وتعاطفه مع الفلاحين المطرودين من
أراضيهم، بإبعاده مرتين للعمل بالمناطق النائية...

بعدنا يا أبي تصدع حي ...

قد ألفتاه مشرقا بالرجال

وانحنى ملعب وأطرق سفح ...

وتعرت بالهم خضر التلال

بعدنا ... بعدنا أتذكر زهوى ...

وفتوى وعزتي واختيالي..

يوم جاء الشوار بيتك ليلا ...

ملء أجفانهم بريق النزال.

لذي أن أراك تحنو على الجرح...

وتدعو للبذل والاحتمال.

لذي أن أراك تغشى المنايا...

وبقايا يديك في الأغلال

ذاك عهدى بأول الحب للدار...

ومعنى العلى ومعنى النضال.

ذاك عهدى بأول النار تسرى ...
في عروقي نورا وفي أوصالي.
ذاك عهدى بأول اليأس والبذل ...
وسر الفدا وروح القتال.
ذاك عهدى بأول المجد يزكو...
بالضحايا وروعة الآمال.
يا فعما شدا ما تنازعنى....
الشوق طموحا إلى اقتحام المعالي.

دارت حياة كمال ناصر سواء في المنزل أو المدرسة في فلك حركة أكبر من مدارك الطفولة البسيطة، وإن كانت بلا أدني شك قد أكسبته بالخبرات التي مكنته من بلورة كثير من قناعاته السياسية فيما بعد، ولا شك أن جحافل الفلاحين المطرودين من أراضيهم وجيوش المتعطلين كانت مدعاة لتساؤلات الطفولة في تحسسها البريء للعالم المحيط ومحاوله فهمه.

وربما لم يستطع أن يستوعب الإجابات في حينها، واختزنت ذاكرته هذه الأحداث إلى أن استطاع بعد أمد غير طويل أن يجد القراءة الصحيحة لها، وأن يضع كلا منها في المكان السليم على سياق تفكيره.

ولا يجوز أن نبالغ في تصوراتنا عن مدركاته في تلك الفترة إلى الحد الذي نذهب فيه إلى حدود التقدير الزائد لطفولة أعجوبة متفردة في نبوغها، وهو التصور الذي سيدفعنا إلى محاسبته محاسبة كاملي المسؤولية. وكل ما يجب أن يكون واضحا للذهن أن ظروف نشأة كمال ناصر والعوامل الواقعية التي تعرض لها إبان طفولته ومراهقته كان لها أثر في نضجه المبكر مثله في ذلك مثل الأجيال الفلسطينية التي أسرعت جمرة الاحتلال البريطاني واستراتيجية الاستيطان الصهيوني بانضاجها قبل الأوان.

ولا تعنى مساهمته في مظاهرات الطلبة والأعمال الثورية التي دأب التلاميذ على القيام بها مساعدة لثوار ١٩٣٦ كقتل الذخائر والمؤن بين فصائل الكفاح المسلح، أو قطع الطرق وتعطيل المواصلات، إن مشاعره الوطنية قد استقرت بوعي مع التيار القومي اللبرالي، الذي تبنته العناصر البرجوازية ذات الدور المتزايد في حركة النضال الوطني، والتي رفضت الأساليب العتيقة للقيادة التقليدية لكبار الملاك.

ففي قصيدة فلسطين الأبية - في الثورة الفلسطينية الكبرى وهي إحدى قصائده المبكرة.. تتعالى أصدااء واضحة المعالم لأيديولوجية كبار الملاك وتصوراتها السياسية، ولا يخفى على أحد مساهمة هذه الطبقة في حرق النضال الوطني وتوجيهه بمنطق ديني إلى عداء سافر لليهود وليس باتجاه العدو الرئيسي للشعب الفلسطيني المتمثل في الاستعمار البريطاني، وترتد هذه القصيدة بكمال ناصر إلى الموقع الفكري لطبقة الوجهاء

الموالين بواقع مصالحتهم للاحتلال ولحكومة الانتداب... ولا يستطيع
كمال ناصر على الرغم من أصوله البرجوازية وتربيته على أسسها
الفكرية أن ينجو من الشراك فيهوى بحكم حدائته، وعدم تمرسه
الفكري، إلى وهدة التيار الفكري المتخلف.

يا مكدونالد ترى تناسيت المودة والعهود...
أيام كنت لنا الحليف وكنت ذا الخل الودود...
ياليت شعري هل عفت تلك الوثائق والوعود...
إن كان جن بما الزمان فسوف يعقل من جديد...
والدهر يجتاح الكرام كأنه الخصم العنيد...
لا بد للتاريخ يوما أن يعود وأن يسود...
يا دولة التيمس أبعدى عنا أذى الشعب الطريد...
ودعى العروبة تسترد ذخائر المجد التليد...
فيقال ساد الإنجليز بعدهم لا بالوعيد...



أبدى كمال ناصر في هذه الفترة استعدادا أدبيا، كما كان عاشقا
للموسيقى، وجرت أصابعه برشاقة وحساسية فنية على أصابع البيانو
وملأ بأصواته المتناغمة أجواء المنزل، وبرهافة شعور بدأ ينظم قصائده
ويعزفها، ويغنيها بصوت جميل لأترابه زملاء الدراسة من تلاميذ
بيرزيت، البلدة والمدرسة.

وهيأت المؤتمرات والندوات الأدبية والمجلات التي كانت تموج بها حلقات الدراسة المناخ المناسب لنمو النبت الفني المتوثب للحياة، وفي الثالثة عشرة فاز بالجائزة الأولى في المسابقة الأدبية السنوية، وما أكثر هذه المسابقات التي كانت تعقد في ذلك الحين، والتي خلقت الحافز القوي للتنافس والنضج، كانت فلسطين تتنفس عن بكرة أبيها للحضارة متحدة سنوات الكبت العثماني المميت، مقاومة المحتل الجديد، وكالأم الواعية أغدقت الرعاية على أولادها الصغار زخر مستقبلها، وكثرها الثمين، وما لا شك فيه أن حيوية الشباب بدأت تتدفق في شرايين الأم العجوز فتبض بالصحة والعافية وتضج بالحياة ولا أدل على ذلك من أن مدينة القدس وحدها أصدرت ابتداء من عام ١٩٢٠ إلى أواخر ١٩٤٨ ما لا يقل عن ستين جريدة ومجلة في السياسة والأدب والعلم والدين.

لقد مثل التعليم أحد محاور التسابق بين العرب والدخلاء. وفي الوقت الذي سعى الانتداب البريطاني والمستوطنون الصهيونيون لانتهاك مقدساتها. كان لابد لها أن تشرع أسلحتها للمقاومة وأن تعلن حالة التأهب واليقظة،... وهذا ما بدأت تلجأ إليه وتنادى به.

فلم يكن غريبا إذن أن يفوز كمال ناصر أو غيره في مثل هذه السن، فلقد شاءت إرادة الإمبريالية العالمية وعلى رأسها الإمبريالية البريطانية أن تحرم أطفال فلسطين ليس من ديارهم فقط، وإنما من طفولتهم، وقدر على هؤلاء الأطفال الذين سيقاسون الأهوال منذ هذا

التاريخ، إلى أن يستشهدوا في المستقبل القريب، أو البعيد أن يتكبدوا مزيدا من الآلام تلو الآلام، وأن يقطعوا الطريق الوعر المفروش بالأشواك إلى عارضات الصليب، كانت الخطة قد وضعت وبدأ التنفيذ، ولم يكن هناك وقت ليستغرق مشوار النضوج والرجولة زمنه المعتاد، وعبء المقاومة والتحدى لا يرحم، فالمستبد لا ينتظر... وكان على الناموس الطبيعي أن يعدل كثيرا من القوانين مجاريا واقع الأرض المنهوبة.

وبالنسبة لمراهق في الثالثة عشرة، فإن قصيدته التي نالت الجائزة الأولى في مباراة الإنتاج الشعري التي أقيمت في مدرسة بيرزيت، تقدم الدليل الواضح على ظاهرة النضج المبكرة ليس بمشاعرها المكتملة، فقط، وإنما بمستواها الفني.

عيناك سر كآبى عيناك

عرضا صرعت بلحظها الفتاك.

هيهات أن ييرا العليل من الهوى

حكم الهوى فوقعت في الأشواك.

أرسلت سهما كان فيه منيتي

فسرى كمسرى النور في الأسلاك.

.....

شاهدتها والنفس لـج بها

الهوى والقلب مطرد التأوه شاك.

والليل قد لبس الحداد كراهب
سُم العبادَة، ضل في الاشراك.
والبدر قد تخذ الغمامة معظفا
يختال تيهها في ذرى الأفلاك

.....

ومن الطبيعي أن تتضمن القصيدة ملاحظات ناضجة سابقة لأوانها،
كتلك الخاصة بالراهب الذي سُم العبادَة، فلم يعد مسلمة من
المسلمات الغامضة التي يسلم بها الوعي الصياني تسليما، بل أصبح
موضوعا يمارس الوعي عليه قدرا هائلا من التجريب واستخلاص
النتائج والملاحظات.

وإذ كنا لا نستطيع أن نقارن بين هذه القصيدة التي فازت بالجائزة
الأولى، وبين تلك التي فازت بالجائزة الثانية أو الثالثة.. ومجموع
القصائد التي تقدمت للمسابقة، حيث أنها لم تقع تحت أيدينا، وربما لم
يحفظ بها أحد. فنعتقد أننا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إنها لا تقل نضجا
واكتمالا فنيا عن قصيدة كمال ناصر، ولا تتفاوت كثيرا في مستواها
الإدراكي أو الأدبي عنها.

إن ظاهرة النضج المبكر ظاهرة عامة وموضوعية، تنم عن إصرار
الأرض والطبيعة على المقاومة ورفض الاستسلام، والاستعداد لجأمة

محسوبة المخاطر، ومن منا لا يلتفت إلى هذه الظاهرة، التي تعلن عن نفسها بجلاء ووضوح لا يقبل التأويل أو التفكير ففيما بين عامي ١٩٥٥، ١٩٤١ هي كل عمر إبراهيم طوقان ومض نتاجه الشعري وأهلب عامة فلسطين ولم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره بعد طالبا بالجامعة الأمريكية ببيروت.

أما عبد الرحيم محمود فتوهج كالوميض واختفى كالبرق، قضى الفترة من ١٩٢٨ - ١٩٣٢م.. تلميذا بمدرسة النجاح الثانوية ليلتحق بهيئة التدريس بعد تخرجه، ولم يكد يبلغ التاسعة عشرة ليستقبل ويلتحق بفصائل الكفاح المسلح إبّان ثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦، ثم يفر إلى العراق بعد توقف الثورة ويلتحق هناك بالكلية الحربية... إلى ١٩٢٤. لينضم فيما بعد إلى جيش الإنقاذ عائداً لفلسطين ليستشهد في معركة الشجرة ١٣ يوليو ١٩٤٨ عن عمر لا يناهز عمر الزهرة. تاركا أثرا لا يحى على امتداد الحياة الأدبية والثقافية.

وإذا كان بمقدور الأرقام أن تتحدث عن طوقان وعبد الرحيم وكمال ناصر وأضراهم من الأسماء التي حققت لنفسها الشهرة. فإن الأرقام أيضا تستطيع إذا توافرت الإحصائيات اللازمة أن تتحدث عن هؤلاء الصبيان الشهداء الذين تساقطوا على ساحة الوغى والجهاد ضارين باستشهادهم المثل على روح الرجولة المبكرة وقسوة المسئولية.

النكبة:

من بين ٥٤٩٧ طالبا وطالبة التحقوا بالجامعة الأمريكية ببيروت، فيما بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٤٦. كان كمال ناصر، الذي أنهى دراساته بمدرسة بيرزيت عام ١٩٤٢، وشأن جميع الطلاب المنتمين إلى البيوتات البرجوازية والاقطاعية شد الرحال إلى لبنان، نظرا لخلو فلسطين من التعليم الجامعي والدراسات العليا، فلم يكن أمامهم جميعا غير إتمام التعليم على نفقتهم الخاصة، في جامعات الدول العربية أو الأوربية.

وفي لبنان، صادف كمال ناصر مناخا ثوريا لا يقل حرارة عن مناخ فلسطين الثورة الكبرى، كانت بيروت تنبض بالحركة والنضال ضد الانتداب الفرنسي، وتفاعل كمال ناصر بدمائه الفلسطينية مع النشاط الوطني، فاستحق بجدارة سخط السلطات فصلته نصف عام دراسي مع من اضطرت لفصلهم من الطلاب محاولة لإخماد شرارة الثورة المندلعة، وما كان بإمكانها أن تخمدها وانتهت سنوات التعليم الجامعي ببيروت ويعود كمال إلى فلسطين عام ١٩٤٥ حاصلا على ليسانس الآداب في العلوم السياسية لتواجهه فلسطين بوجه جديد.

أثمرت سياسة الإمبريالية البريطانية، وأورق النبت الغريب الذي زرعه عنوة بالأرض المقدسة، والذي تعهدته بالرعاية ووفرت له الظروف الملائمة كافة ليتسامق ويترعرع.

وأصبح بمقدور العائد إلى فلسطين عام ١٩٤٥ أن يلمح مخايل السياسة الإمبريالية ويشهد بمهارة عتاة الاستعمار البريطاني، للتغيير الذى طرأ على وضع اليهود في فلسطين ومن سيرهم الخبيث في طريق التبلور القومي.. كانت فلسطين تتحول من قطر ذي قومية واحدة هي القومية العربية وجماهير يهودية في حكم الأقلية، إلى قطر ثنائي القومية يعيش فيه شعبان العربي واليهودى، فيناهز عدد اليهود ال٦٦٠ر٠٠٠ ألف نسمة، كما كانت حصيلة التطور الاقتصادى مؤشرا بالغ الدلالة على تغلغل النبت الامبريالى في الواقع ورسوخه، فالقطاع الاقتصادى لليهود أصبح يتصدر النشاط الاقتصادى فبلغ عدد المنشآت اليهودية ١٩٠٧ منشأة برأسمال قدره ١٢ مليون جنيه في حين بلغ عدد المنشآت العربية ١٥٥٨ منشأة صغيرة لا يتجاوز رأسمالها ٢ مليون جنيه، كما أن مساهمة القطاع اليهودى في الناتج الاقتصادى جاوز ٢٩ مليون جنيه في حين لم يتجاوز الناتج العربى ٥ر٦ مليون جنيه.

وإذا كانت سنوات الحرب سنوات انتعاش بسبب نفقات القوات البريطانية المعسكرة في البلاد، وتعاضم حاجات المجهود الحربى، واضطرار بريطانيا إلى تعديل سياستها القديمة، من الإبقاء على البلاد سوقا لسلعها الصناعية إلى تمكين الصناعات المحلية من التطور لسد حاجات البلاد ومدّها أيضا ببعض المتطلبات، فإن بريطانيا خصت القطاع اليهودى بمعظم البركة واستفادت المنشأة الصناعية للصهيونية من هذا الوضع نظرا لأنها أكثر تطورا. ولأنها بحكم الروابط التي تربطها بالإمبريالية البريطانية لم تتعرض إلى القدر ذاته من الضغوط والقيود التي تعرضت لها الصناعات العربية.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها إنجلترا لبناء الوطن القومي اليهودي، فلقد بدا واضحا أنها كادت وشقيت لغيرها، فالقيادة الصهيونية المتتمرة لبناء دولة الأحلام بواقع إحساسها بالدور المتزايد للإمبريالية الأمريكية بدأت تسعى للانضواء تحت جناح الولايات المتحدة.

وكان مؤتمر لجنة الطوارئ الأمريكية للشئون الصهيونية الذي عقد في فندق بالتيمور ١٩٤٢ أول تعبير علني عن انتقال الصهيونية إلى أحضان الإمبريالية الأمريكية الفتية.

أما الحركة الوطنية لعرب فلسطين، فلقد بدأت تنبض بالحياة بعد أن اتسع نطاق الإرهاب الصهيوني عام ١٩٤٢، وأن اقتصر رد فعلها على البرقيات والعرائض والمؤتمرات الجماهيرية المستنكرة، كانت القيادات القديمة قد غادرت البلاد فرارا من الاعتقال والقمع بعد الثورة الكبرى، وذهب بعضهم وعلى رأسهم الحاج أمين الحسيني إلى برلين النازية، كما اعتقلت السلطات البريطانية آخرين وأبعدتهم إلى روديسيا. وتخاذل الباقون متهاودين مع بريطانيا ناشدين السلامة فعادوا إلى البلاد.

وتشكل المكتب العربي من مثقفي فلسطين المتبرزين برئاسة موسى العلمي، متنبها إلى بؤادر التغلغل الإمبريالي الأمريكي، المتأهب للاستيلاء على ميراث الإمبريالية البريطانية، ودار محور نشاط المكتب العربي حول الدعوة إلى التعاون مع الإنجليز والأمريكان، والدعاية في أوساطهم، لكسب عطفهم على القضية الفلسطينية، وتجنب كل ما يؤدي إلى تشجيع أعمال الجهاد والقوة.

وبسبب التغير الطبقي الطارئ واتساع حجم الطبقة العاملة وتكتلها في المدن الكبرى واتحاد صفوفها تشكلت عصبه التحرر الوطني خلال سنوات الحرب وبدأت تعمل تحت شعارات تأييد الحرب ضد النازية من ناحية والمطالبة بالحرريات الديمقراطية وبال حقوق القومية من ناحية ثانية والناداة بالاستقلال وإنشاء دولة فلسطينية ديمقراطية.

وفي عام ١٩٤٤ - ووفق في الإسكندرية على إنشاء الجامعة العربية، وبواقع قرار الجامعة بأن تختار مندوبا عربيا من فلسطين، للاشتراك في أعمال المجلس، إلى أن يتمتع فلسطين بممارسة استقلاله اختارت موسى العلمي، ممثلا لفلسطين في مباحثات إنشاء الجامعة.

وبقيام الجامعة العربية، لم يعد من الممكن استبعادها عن تطور القضية الفلسطينية، فبدأت تتدخل في عمليات بناء القيادة الوطنية وتؤثر في مهمتها، وإذا أخذ في الاعتبار أن أصابع الإمبريالية لم تكن بعيدة عن اللهو بأعضاء المنظمة العربية، استطعنا أن ندرك الآثار السلبية للجامعة العربية في تطورات القضية الفلسطينية، وهكذا اغتصب التضامن العربي في تجسيده التنظيمي دور الحركة الوطنية في فلسطين.

كانت هذه هي فلسطين ١٩٤٥ التي عاد إليها كمال ناصر، لينضم إلى صفوف الشباب العربي المثقف الذي توقع خيرا أو كل الخير في إنشاء الجامعة العربية، والذي خلب له الوجدوى مظهر التضامن العربي الذي بدت به المنظمة... فلم يتوصل إلى ما وراء الواجهة من فساد الارتباطات إلا فيما بعد... وبعد فوات الأوان.

التحق كمال ناصر بجريدة الوحدة وهي جريدة من جرائد عديدة تصدرها القدس كما بدأ دراسته للأدب العربي في مدرسة المطران جوبات وأيضاً اتجه لدراسة القانون وتولت كتاباته بجريدة الوحدة في اتجاه الضرورة لجهة عربية مشتركة تواجه المشروع الصهيوني، وبذل جهداً خارقاً وضائعاً في الوقت نفسه ليجعل الحكومات العربية تشعر بأن عرب فلسطين بحاجة ماسة للمساعدة في مجابتهم للصهيونية، واستحثهم ملحاً أن يسرعوا بالاستعداد والتأهب للنزال.

ولم تلبث القضية الفلسطينية أن بدأت مرحلة جديدة... بعد أن أقرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة مشروع التقسيم في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧. ونشبت الصدامات بين المواطنين العرب والمستوطنين اليهود... وأعيد تشكيل اللجان القومية لتنظيم الكفاح وتكونت فصائل المقاتلين من عرب فلسطين. وشكلت الهيئة العربية العليا جيش الجهاد المقدس. واتخذ عبد القادر الحسيني أحد أشهر قواد جيش الجهاد ببرزيت مقر إدارته العسكرية متمركزاً في بيت آل ناصر. وحتى أبريل ١٩٤٨ استطاعت الجماهير الفلسطينية المحافظة على وطنها ببطولة، وفي ٩ أبريل استشهد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل، ومنذ هذا التاريخ تداعت حركة الكفاح المسلح بفلسطين. بعد دخول الجيوش العربية التي لم تواجه الصهاينة بقدر ما واجهت العرب فانقضت على المناضلين ترع أسلحتهم وتحول بينهم وبين القتال. وماذا ينتظر من جيش عربي قائده الأعلى الملك عبد الله، وقائد أحد جيوشه -

الأردني - جلوب باشا البريطاني، وماذا ينتظر من معركة تجرى وفق مخطط مرسوم وضع في واشنطن ولندن وتل أبيب.

في هذه الأيام بدأ الإيمان بالأنظمة والحكومات العربية يتبخر من صدر كمال ناصر، لقد شهد بنفسه مشهدا من المشاهد الهزلية المبررة.. فلقد التحق بالجيش العراقي أثناء مروره على قريته في طريقه إلى المعركة، ورأى الجيوش العربية وهي تقف ظافرة على أبواب تل أبيب لتبدأ في التقهقر للخلف.. فلم تكن الحكومات العربية جادة في دخولها المعركة إلا بالقدر الذي يضمن الحفاظ على المصالح البريطانية. ويحفظ عليها - هذه الحكومات - ماء وجهها أمام شعوبها.. كان دخول القوات العربية مناورة لا أكثر على خريطة التنافس بين المصالح البريطانية وأطماع الإمبريالية الأمريكية.. وما إن تم الاتفاق بينها حتى بدأت القوات العربية تتراجع، وقبلت الأنظمة العميلة بالهدنة الثانية في ١٨/٧/١٩٤٧. واستمر توقيع اتفاقيات الهدنة مع إسرائيل فيما بين فبراير ويوليو ١٩٤٩.

أصبح كمال ناصر أحد رعايا التاج الهاشمي، وخرج من دخل من القوات العربية وأعلنت الهدنة، وبدأت إسرائيل تناقش في الحدود من جديد، على ضوء الخرائط التي وقعت في رودس.

"وقد يتركز الخلاف بين الصهاينة وبين بعض الدول العربية. وخاصة الأردن على ريع سنتيمتر على الخريطة..."

إحدى هذه القصص المؤسفة يحكيها كمال ناصر في مذكراته التي نشرها بفلسطين الثورة - على صدوركم باقون". بعد انسحاب الجيش العراقي مباشرة هددت إسرائيل بالزحف على المثلث الخصب، إن لم تسلم أراضيها كلها تقريبا، بموجب الخرائط الممهورة بتوقيع الوفد الأردني المفاوض وطلبت لجنة الهدنة المشتركة، أن يجتمع وفد من إسرائيل وآخر من الأردن لبحث الأمر على الأرض وعلى الخرائط، وكلف لهذه المهمة عن الجانب العراقي اللواء أحمد صدقي الجندي، أحد قادة الجيش الأردني، وانتدب لمرافقته السيد أحمد الخليل وكان مساعدا للحاكم العسكري في مدينة رام الله، وهو محام فلسطيني من حيفا، وكان في الجانب الإسرائيلي موسى ديان ومعه مجموعة من ضباط جيش الدفاع.

أصر أحمد الخليل على دعوة بعض الصحفيين المتمردين في تلك المرحلة، من الذين يهاجمون النظام، ويلقون عليه وعلى غيره من الأنظمة العربية مسئولية ضياع فلسطين، وأصر على دعوتهم، ليثبت أنه ذاهب للمراقبة، وليس للتوقيع، وكان حريصا هو وغيره من الفلسطينيين بادئ ذي بدء أن لا يلوثوا بما حدث، لكن سرعان ما جرف النظام عشرات بل مئات من طبقته فاستسلموا للنظام، ودعموه وحكموه.

وذهب كمال بين من ذهب من الصحفيين. كانت المفاوضات مضحكة، وكان موسى ديان يتكلم من موقع القوة ويقول هذه حدودنا على الخارطة. التي وقعتم عليها، ومعنى ذلك أن أرض المثلث هذه لنا وعليكم الانسحاب.

"وكان ببساطة تصل حد الغباء وحدة المأساة يرد اللواء أحمد صدقي الجندي، أننا لم نكن نعرف أن كل هذه الأرض العربية ستذهب لكم، هذه الأرض ما زال يزرعها أبناءها وهم يقيمون فيها، فكيف يخرجون، كاد كلامه يصل حد الاستجداء والمهانة، وتعب الفريقان من الأخذ والرد وتابع موسى ديان يرسم لهم خطة الانسحاب على مراحل، وتخيير المزارعين بالانضمام لهم أو لهم.

وفجأة. خرج موسى ديان من الخيمة التي تجرى فيها المفاوضات، على الحدود في منطقة طولكرم قلقيلة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها، كان ما زال نحيلاً وعصبة عينه السوداء تغطي نصف خده البارز، وفجأة خرجت بدوري خلفه، وكان يدير ظهره إلى الخيمة وقد وقف وحيداً ينظر إلى الساحل، وتقدمت نحوه وأخبرته أنني أريد أن أتحدث معه، فقال تفضل قلت لقد استمعت إلى المهزلة في الداخل. وأنصح بالألا تتم مثل هذه الإجراءات. إنها خطيرة. وتزيد أضعاف أضعاف على ما هو في قرار التقسيم. وستزيد الحقد ضدكم. وستشعل النار من جديد. هذا ما تبقى لنا من أرض خصبة، لا داعي لكل هذا التشدد.

"اليوم فقط"، أعرف أنني كنت طفلاً مراهقاً، ومع ذلك فقد أحسست أنه من واجبي أن أفعل شيئاً، من أجل إنقاذ هذه الأرض الخصبة الجميلة.

نظر إلى موسى ديان من فوق وقال هذه الحرب وسوف تنسون، نحن نعرفكم "وانتهى الأمر بتسليم المثلث لإسرائيل، وعاد كمال ناصر إلى رام الله وفي اليوم التالي صدرت الجيل الجديد وقد تصدر صفحتها الأولى مقال بعنوان "كيف سلمنا المثلث" افتتح ببيت شعر:

"... ومن دخل البلاد بغير حرب... يهون عليه تسليم البلاد".

وبعد ساعات قليلة زج بكمال ناصر وكل محررى وعمال الطباعة ومن يمت للجيل الجديد بصلة في المعتقل.

خلال هذه الأيام التي أعقبت النكبة، واستغرقتها مباحثات الهدنة، تلاشى إيمان كمال ناصر بالأنظمة العربية. وبالجامعة العربية، وتحطمت آماله التي لم تكن في موضعها بهذه الأنظمة، وبفاعليتها، وبمدى ما يمكن أن تقدمه من عون ومساعدة.

وبدأ يفكر جديا في الانضمام إلى حزب البعث كتنظيم جماهيري يرفع رايات الوحدة. كإطار سياسى يمارس نشاطه من خلاله.

ويشارك كمال ناصر بقلمه في جريدة البعث، ثم يلتحق بحزب البعث في أوائل ١٩٥٦م.



الأردن على الصليب:

نجح المناضل الفلسطيني محمد عشو في إقناع المباحثات الدائرة بين الملك عبد الله وإسرائيل، باغتياله للملك في ساحة المسجد الأقصى - يوليو ١٩٥١، ونصب طلال ملكا على الأردن، وكان معروفا بعدائه للإنجليز وكراهيته للجنرال جلوب قائد الجيش الأردني، وبدأ يناهض الاستعمار البريطاني، ولكن لحساب الاستعمار الأمريكي.. وفتح طلال أبواب الأردن على مصراعيها أمام الاحتكارات الأمريكية المتخفية وراء مشاريع النقطة الرابعة للمساعدات الاقتصادية والفنية، إلا أن هذا الغرام الجديد بين طلال والإمبريالية الأمريكية الشابة أثار ثائرة الأسرة الهاشمية المتدلثة في حب الإمبريالية البريطانية، ودفعها للإخلاء لبريطانيا وهو إخلاء تاريخي عريق، للإطاحة بطلال وتنصيب حسين بن طلال ملكا (١٩٥٣). وبدأت بريطانيا تسعى لربط الأردن بحلف بغداد، بتكبير القوى الوطنية، وفي منتصف عام ١٩٥٤ قامت حكومة توفيق أبو الهدى بحل البرلمان، وتعطيل الصحف، وإجراء حركة اعتقالات واسعة، شملت الكثيرين من أعضاء الأحزاب الوطنية، والتنظيمات الشعبية تمهيدا لإجراء انتخابات جديدة.

وفي هذه الآونة كان كمال ناصر قد غادر الأردن إلى الكويت مهزوما جريحا، ولم تطل غيبته هناك، إذ لم يلبث أن عاد ليشارك في الموجة الثورية التي بدأت تحتاح البلاد، خاصة وأن أبعاد مؤامرة جر الأردن إلى حلف بغداد لم تعد خافية، بحضور جلال بايار رئيس جمهورية

تركيا، ورسول الحلف حسين. فقوبل بالاضراب العام والمظاهرات ثم انفجرت الحركة الوطنية في صورة ثورة عامة في كل مدن الضفتين الشرقية والغربية وتدفقت الجماهير الغاضبة من الفلاحين والعمال والنساء والطلاب و... و...، تواجه الفليق العربي للبادية بقيادة جلوب باشا. وتتلقى الرصاص بصدورها. وكانت حقيقة كما شاهدها كمال ناصر أمة عظيمة لن تزول.

أمة فيها رجاء لن تزول....

هكذا صلى الرفاق

يوم ثاروا واستفاقوا

يحملون النعش نعش الثائرة ...

والدم الحر مراق

والجراحات انطلاق

والأمانى مشخبات حائرة

تزرع الوهم بصمت وذهول

أرق الحزن عليه والفراق

فانحنت ثكلى على النعش تقول

أمة فيها رجاء لن تزول

وما أسرع ما حنى رأسه للريح لتمر، الملك حسين، فتراجع عن فكرة الانضمام إلى الحلف وأقال الوزارة، وطرده جلوب باشا وحل برلمان ١٩٥٤ المزيف، داعيا إلى إجراء انتخابات جديدة عامة في أكتوبر ١٩٥٦. وفي هذه الانتخابات رشح كمال ناصر نفسه عن

حزب البعث في مدينة رام الله. وأصبح نائبا في البرلمان الوطني الذي تشكل بأغلبية من الحزب الوطني، فتم تشكيل الوزارة برئاسة سليمان النابلسي، والتي كان لها كثير من الأعمال الإيجابية. كطرد الضباط الإنجليز من الجيش، إلغاء المعاهدة البريطانية واستبدالها بالمعونة العربية، توقيع التحالف العسكري الثنائي مع مصر، إطلاق الحريات العامة إلغاء القوانين الرجعية والمقيدة للحريات، والشروع في تطهير الأجهزة الحكومية من أعوان الاستعمار والرجعية واستبدالهم بعناصر وطنية ويسارية. تحقيق إشراف الحكومة على مشروعات النقطة الرابعة وإحقاق أموالها بميزانية الدولة.

وأنارت إنجازات وزارة النابلسي ثائرة الاستعمار، وبدأت الولايات المتحدة تعد للتدخل في الأردن، وفرض مشروع إيزنهاور عن طريق الاستعانة بقوى الثورة المضادة في الداخل كعادتها، وبادر الملك حسين تنفيذ ذلك بإقالة الوزارة في العاشر من أبريل ١٩٥٧ متذعرا بوجود وزيرين أحدهما بعثي والآخر ماركسي، وأصدر بيانا منددا بالنشاط الشيوعي مطالبا بالضرب بيد من حديد على كل من يدين بهذه المبادئ، تحركت على أثره كل عناصر الثورة المضادة، ونجح الاستعمار في الإطاحة بالحكم الوطني، والعودة بالبلاد مرة أخرى إلى أحضان الرجعية والاستعمار، وأعلنت الأحكام العرفية وتعطل البرلمان وحلت الأحزاب الوطنية، ونقابات العمال واتحاد الطلبة، وفصل مئات الموظفين، وألقى القبض على عشرات الضباط الأحرار، وزج بالآلاف من المواطنين في السجون والمعتقلات، وسيق عشرات إلى ساحات الإعدام في الميادين

العامّة. وقامت قوات البدو بمحصّد أرواح المواطنين المتظاهرين حصداً في الشوارع برصاص مدافعها. وهبت عصابات الإخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي والقوميين السوريين الفاشيست تغتال العناصر اليسارية والتقدمية.

وتصدر اسم كمال ناصر قوائم المطلوب إلقاء القبض عليهم. وأصبح كمال هاربا، وظلّ مخبئا في بيزيت مدة تجاوز العام. والبوليس دائم التأهب لإلقاء القبض عليه. وعمليات البحث والمطاردة لا تتوقف.

وإذا كان كمال ناصر قد استطاع أن ينجو بجلده من حملة الإرهاب بفضل المساعدات الجديرة بالاحترام والتي أغدقها عليه أبناء قريته، فإن هذه الأشهر في مجملها كانت سلسلة من التجارب النفسية القاسية، وما أشد وقع هذه التجارب عليه وهو الرجل الذي يتعلق التعلق كله بتصورات أسطورية عن البطولة. والذي غالى دائما أيما مغالاة في تمسكه بالكبرياء الإنساني، لقد كانت أخلاق كمال ناصر ومفاهيمه وتصوراته هي السياط الوحيدة التي اكتوى بلسعها:

ويفتشون ويسألون
وأنا هنا في مكمنى في ملجئى
متكور في ذلة تحت السرير
وأحسهم قربى بحقد يصرخون
أين الزعيم المارد

أين العظيم الشارد
 السيف يطلبه وتطلبه السجون
 الأرض تلعنه.. وتلعنه السنون
 وأنا هنا في مكمنى العتم الصغير
 متكور في ذلة تحت السرير
 أنفى الأبى على الرغام
 ويكاد يفضحنى الرغام
 قد هاله ذلى ومأساة الكرام
 وأحس أنفاس الكلاب تشمى
 وتصيح في مرح جبان
 هرب الجبان
 سخرت لتحمينى وتمنحنى الأمان
 وقمد لى من خلف بسمتها اللسان
 وتصيح في مرح جبان
 أخرج لهم
 أخرج فقد خجل الخجل
 والكبر أطرق وانفعل
 وقدلت منك العيون
 لكنهم لا يبصرون فيسخرون ويسرعون

 ولجمت في صدرى الإباء

وذبحت فيه الكبرياء
وقبعت أجتز الشقاء لعلهم
لا يعثرون . فيسأمون ويذهبون
ويفتشون. ويسألون فيذهبون
وتعود أحلامي إلى
وتثور آلامي على
وتعز آمالي لدى فلا أطيق
وتصيح في الكبرياء
أن عز في الوطن الفداء فأستفيق
وعلى خطاهم من بعيد
تنساب أغنية العبيد
في مسمعي، في أضلعي
وأنا هنا في مكمنى العتم الصغير
متكور في ذلك تحت السرير
فإذا بصوت للضمير
صوت أذل من المصير
يغتالني، ويصيح بي. نذل حقير... (حقير)

ومن بيرزيت، استطاع كمال ناصر أن يتسلل هاربا إلى نابلس ليختفي
أربعة أشهر قبل أن يستطيع عبور الحدود إلى سوريا، وليبدأ حياة المنفى بين
سوريا ومصر ولبنان حتى صدور عفو عام في الأردن ١٩٦٥.

النكسة:

لم تكن الإقامة في سوريا بالإقامة الهيئية، بل إن كمال ناصر عاش في سوريا تمزقاً لم يعيشه من قبل. ومن تمزق إلى تمزق، خاصة حين حدث الانشقاق في حزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٥٩، ومرة أخرى عندما بدأت الصراعات بين عبد الناصر والبعث.

فكمال عضو بالبعث لإيمانه بالنضال الجماهيري المنظم، ومع عبد الناصر الذي رأى فيه الفارس والزعيم القادر على تحقيق ما لا يستطيع غيره أن يحققه. وكمال في النهاية مع الوحدة وضد الانفصال... وحين استولى الحزب على السلطة سنة ١٩٦٣ في العراق وفي سوريا انتعشت معنويات كمال ناصر، ولكن على غير ما يشتهي سارت الأمور ليجد نفسه ١٩٦٦ خارج الحزب عائداً إلى بيروت، حاملاً هوية نضال فلسطينية. لاحقاً بالكفاح الفلسطيني الذي انطلق بقيادة البرجوازية الصغيرة في طريق التعبير عن الشخصية الفلسطينية، والذي بدأ مسيره منذ عام ١٩٦٤.

بدأ الفلسطينيون يتحسسون بوادر الخطر المقبل مع نهاية عام ١٩٦٦، من الهجمات الإسرائيلية على سوريا والأردن، وفي نوفمبر، وقعت مصر وسوريا اتفاقية الدفاع المشترك، وفي مدن وقرى الضفة الغربية تشكلت لجان المقاومة، لتنظيم الجماهير وتدريبها على الدفاع، وتشكلت الوفود لمقابلة الملك حسين، تطالب بالسلاح لتدافع عن نفسها، وبرفضه، تصاعد التوتر بين الفلسطينيين وبين الملك الهاشمي،

كانت المؤامرة الجديدة تحاك في صمت، وكما يقول كمال ناصر عقب
النكسة في مذكراته:

الأيام أثبتت في الماضي وستثبت في المستقبل الارتباط العضوى بين
بعض هؤلاء المسئولين وبين إسرائيل، لم تكن الضفة الغربية مفرغة من
السلاح بالمصادفة، ولم تمنع من القتال بالمصادفة ولم تهزم الأمة العربية
كلها بالمصادفة.

أيقن كمال ناصر أنه بمجرد نشوب الحرب فإنها ستنتهى باحتلال
الضفة الغربية، ولم يضع وقتاً، وزملاؤه، فنظموا مجموعة رام الله وصح ما
توقعه. انتهت الحرب باحتلال الضفة الغربية، مليون عربي تحت الاحتلال
الإسرائيلي آلاف وآلاف من اللاجئين، وآلاف مؤلفة من الخيام.

نشطت مجموعة رام الله وهبت إلى العمل، وانتخبت كمال ناصر
وإبراهيم البكر للتنسيق بين المجموعات المختلفة المشكلة في المدن
والقرى. لتنظيم ما يسمى بحركة الفلسطينيين الوطنية كحركة تحشد في
صفوفها الاتجاهات كافة من اليمين واليسار ضد الاحتلال.

وفي الوقت الذى بذل كمال ناصر جهده لتنظيم الكفاح السلبى في
الضفة الغربية إيماناً بفاعليته وجدواه في تلك المرحلة، فوجئ بالتنظيم
المسلح داخل الوطن المحتل، وكما يقول في مذكراته "على صدوركم
باقون": وجدت نفسى أمام الأمر الواقع أتحدث وأناقش بعض وجهات
النظر حول الموضوع (الكفاح المسلح). فقد كنت أميل إلى التريث

والاستعداد وخاصة فقد كنت ألس وأحاول تفهم نفسية الشعب بعد الاحتلال مباشرة وردود الفعل المختلفة للعنف الثوري الذي كان العدو يقابله بالسحق والذبح وكنت أفضل أن تنظم البلاد للمقاومة السلبية كما نصحن بعض التقدميين من أبناء الأرض المحتلة ثم نعود إلى تصعيد الكفاح بالسلاح.

لم تستمر طويلا أيام كمال ناصر في الضفة الغربية المحتلة، فما أسرع ما تنهت إلى ما يقوم به السلطات الإسرائيلية، وفي نهاية شهر ديسمبر ١٩٦٧ رافقت الحراسة الإسرائيلية كمال ناصر وإبراهيم البكر إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، حيث قام وفد أردني بتسلمها كانت السنون قد صقلته تماما بالخبرة، وحنكته بالدراية والحكمة، وقهدمت أحلامه في الحكومات العربية المتخاذلة ضعفا أو العميلة، والأحزاب المتهاوية، ومنذ هذا التاريخ وجد أحلامه في أحضان الثورة الفلسطينية، انضم عضوا في فبراير ١٩٦٩ للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتسلم مسؤولية الإعلام بها، وسخر كمال ناصر - ضمير الثورة الفلسطينية - جهوده لحشد الطاقات وتوحيد المنظمات المختلفة والتي لم ينضو تحت لواء أي منها.

وفي دورته الحادية عشرة في ١٢/١/١٩٧٣ انتخب المجلس الوطني الفلسطيني القيادة الجديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي تشكلت من ياسر عرفات رئيسا، وعضوية كل من محمد يوسف النجار (أبو يوسف) من قادة فتح - مسئولاً عن الشؤون السياسية، وزهير محسن عن منظمة

الصاعقة مسنولا عن الشئون العسكرية، وكمال ناصر متحدثا رسميا باسم المقاومة، والدكتور يوسف صايغ رئيسا لمجلس إدارة الصندوق القومي، والدكتور عبد الوهاب الكيالي عن جبهة التحرير العربية، وأحمد اليماني (أبو ماهر) عن الجبهة الشعبية، وأديب عبد ربه عن الجبهة الديمقراطية، وحمدي أبو ستة، وزهدى الناشبي عن المستقلين.

زمن الشهادة:

أعقاب النكسة التي لم تدمر رغم شرستها إرادة الثورة العربية..، ومنذ أواخر العام ١٩٧٠، ضاعفت الولايات المتحدة الأمريكية هجومها على حركة التحرر العربية، في اتجاهين، ضد مصر بهدف عزلها عن أمتها العربية، وضد الثورة الفلسطينية بهدف تصفية النضال الفلسطيني المسلح. وأصبح واضحا أن هناك مخططا أمريكيا جديدا ضد حركة التحرر العربي يتوجه بدبلوماسية هادئة في عدة مسارات:

- تمزيق وحدة الصف الوطني العربي، وإثارة الانقسامات بين الدول الوطنية والتقدمية من ناحية وبين الأحزاب والفئات الوطنية والتقدمية من ناحية أخرى.

- عزل مصر عن حركة التحرر العربي.

- تصفية المقاومة الفلسطينية تصفية مادية وبدنية توطئة لتصفية قضية الشعب الفلسطيني إلى الأبد.

- عزل حركة التحرر العربي عن حلفائها الطبيعيين - البلدان الاشتراكية والاتحاد السوفيتي.

- أبعاد قضية الصراع العربي الإسرائيلي عن المجتمع الدولي. لتنفرد أمريكا بتقديم حل أمريكي مائة في المائة أي إسرائيلي في المضمون لهذا الصراع.

ولقد أكدت الصحافة العالمية - في ذلك الحين - على وجود اتفاق أمريكي مصري لحل القضية الفلسطينية.

ولقد ساهم التحرك الإمبريالي الأمريكي في هذه المرحلة على تنشيط القوى القبلية وشبه الإقطاعية في الوطن العربي من جديد بعد أن عزلتها الثورة العربية، كما أدى إلى انتعاش قوى اليمين الاجتماعي وتوثبه وتحينه للفرص لاستعادة السيطرة على مقدرات الشعوب العربية وانتعاش آماله في تصفية اتجاهات الثورة الاجتماعية (الطليعة - يناير وفبراير ١٩٧٢) وفي إطار هذا المخطط الإمبريالي، لعب النظام الملكي الأردني دوره المرسوم بإتقان، بداية من معركة الكرامة ١٩٦٨/٢/٢، إلى مذابح سبتمبر ١٩٧٠، حيث استمرت هجمة أيلول الأسود زهاء العشرة أيام من ١٧/٩/١٩٧٠ إلى ٢٧/٩/١٩٧٠ قبل أن يتوقف القتال ويوقع الملوك والرؤساء العرب اتفاقية القاهرة، على جثث عشرين ألف شهيد من رجال المقاومة، وفي الوقت الذي استشهد فيه الرئيس عبد الناصر، كانت اللجنة العربية العليا برئاسة الباهي الأدغم في عمان تجرى مراسم التوقيع على الاتفاقية وملحقاتها بين الملك حسين وياسر عرفات، وفي ظل هذه اللجنة دارت مجازر جرش والهملان والبقعة والمفرق وأربد. واستمر النظام الأردني مخلصا في تنفيذ المخطط الإمبريالي بشجاعة حتى مذابح جرش وعجلون ١٩٧١.

كانت معركة الكرامة المفتوح الحزين لزمان الشهادة، زمن المذابح الكبرى، زمن انحسار الثورة وانتعاش الطغيان، ولقد بدأ كمال ناصر مع غيره من الثوار رحلته البطولية إلى الشهادة.

تولى كمال ناصر إلى جانب أعبائه العديدة رئاسة تحرير فلسطين الثورة، التي اعتبرها التعبير عن فكر الثورة ووحدة مواقفها ومرتكزاتها التوجيهية في مرحلة تحرر الوطن.. والتي من شأنها أن تنفي حالة الضياع والبعثرة والتشردم التي مرت بها المسيرة.. دافع كمال ناصر من خلال فلسطين الثورة عن المقاومة. مواجهها بشراسة مخطط التصفية الذي يستهدفها كطليعة للثورة العربية:

إن القضية (الفلسطينية) في خطر، وإن الأمة العربية في خطر، وإن الهجمة الإمبريالية الصهيونية في تعاظم، وإنها تجهد أكثر من أي وقت مضى لتمير الحلول الأمريكية الإسرائيلية الاستسلامية في المنطقة، معتمدة على سلسلة الترتيبات التي أجرتها هنا وهناك ومستفيدة من الجو العربي الرسمي المتردى المستسلم، والذي فقد في بعض محاوره القدرة على التمييز بين الوطنية والخيانة^(١).

إن مذابح الثورة الفلسطينية هو ثمن كل الحلول التصفوية والاستسلامية. وثن السلم الإسرائيلي الأمريكي الذي يعملون على تطويع المنطقة لقبوله^(٢).

(١) فلسطين الثورة ١٩٧٣/٢/٢.

(٢) فلسطين الثورة ١٩٧٣/١/١٧.

وإن الكمانن التي نصبت للثورة في مختلف الساحات الدولية والعربية في الماضي القريب، لا تزال منصوبة لها اليوم، وبأسلوب أدق وأخطر يستهدف الثورة في الجذور وفي الرأس.

والصهيونية وقد أوشكت أن تصبح حرة الإرادة تمارس طبيعتها ممارسة حقيقية لا تقبل مصيرا لشعب فلسطين إلا مصير "الهنود الحمر" الذين أصبحوا في الولايات المتحدة مجتمعا صغيرا شبه منقرض.

أما الإمبريالية التي تربطها علاقة عضوية بالحركة الصهيونية، فترفض وعلى المستويات كافة أن تعترف بوجود شعب فلسطين، وأقصى تعريف تملكه الإمبريالية لحقوق شعب فلسطين هو حقه في التعويض، بمعنى أن يبيع كامل حقوقه بالدولارات الأمريكية إلى الصهيونية والإمبريالية. وهي تقبل حتى بهذا التعريف الأقصى من ضمن المعادلة والموازن الدولية وضغوط المعسكر الاشتراكي.

أما حقوق شعب فلسطين لدى الرجعية العربية وبعض المبرقعين بالوجوه الوطنية فهو أيضا حقه في التعويض والتوطين. بشرط أن يفتح عليها خزان الدولارات الأمريكية باسم التنمية والانعاش. واستثمار رؤوس الأموال. وأقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الحقوق في عرفها هو حق شعب فلسطين في دولة صغيرة على رقعة من فلسطين يتجمع فيها الشعب كأنه في معسكر اعتقال أو إبادة. وهذه القوى الرجعية بحكم طبيعتها وارتباطها العضوي بالإمبريالية مضطرة بالقبول بالدولة الفلسطينية الدائرة في فلك الصهيونية^(٣).

(٣) فلسطين الثورة ٢٠/٨/١٩٧٢.

ولكن "ليس خيار العرب هو الرضوخ للمخطط الصهيوني الإمبريالي، وإنما خيارهم في إيجاد الوسيلة الفضلى لمواجهة الهجمة المعادية"^(٤).

إن الارتباط بين الكيان الصهيوني والإمبريالية الأمريكية هو ارتباط عضوى وهذا يعنى أن الإمبريالية الأمريكية هي بالضرورة عدو مفروض علينا لا يمكن تجاهله ولا بد من موازنته بالقوة الذاتية والقوة الصديقة معا.

فالقوة الذاتية هي الأساس والمنطلق لأى إرادة فعل.

وعندما ندعو إلى الاعتماد على القوة الذاتية للقومية العربية نتساءل ما هي عناصر هذه القوة؟ وهل الرجعية العربية بين هذه العناصر.

إن التحليل العلمى والموضوعى لطبيعة الرجعية قد توصل إلى حقيقة الارتباط العضوى بين الرجعية والإمبريالية، ومن هنا فإنه من العبث الاتكال على الرجعية العربية في القيام بعملية الضغط على المصالح الإمبريالية الأمريكية في المنطقة أو ضربها، لذلك فإن هذه المهمة هي مسئولية حركة التحرر الوطنى العربية. ومنها البرجوازية الوطنية.

وإن الطاقة العربية الوطنية بأسرها لو حشدت ونظمت ونسقت فيما بينها قادرة على الإعداد لمعركة طويلة يكون النصر فيها للأمة العربية.

(٤) فلسطين الثورة ١٦/٨/١٩٨٢.

وعلينا بالضرورة^(٥) أن نميز في المنطلق والأسلوب بين معسكر الأصدقاء ومعسكر الأعداء. لقد اتضحت العلاقة العضوية بين الدولة الصهيونية وبين الولايات المتحدة الأمريكية، وإذا كنا لا نستطيع التوصل إلى موازنة هذه العلاقة العضوية المعادية بأخرى بيننا وبين الاتحاد السوفيتي. فإن خيارنا ليس تحويل العلاقة غير العضوية بيننا وبين الاتحاد السوفيتي إلى علاقة سلبية أو علاقة تناقض ثانوي.

وما دامت موازين القوى على حالها في معسكر العدو وباستمرار العلاقة العضوية بين الصهيونية والإمبريالية الأمريكية فليس هناك سبب أو مبرر لتغيير موازين القوى داخل معسكرنا، خصوصا وأن أي تغيير في معسكرنا لا يمكن أن يكون أجدى مما هو كائن وقد يكون أسوأ بكثير.. وأما محاولة خطرة أن نحاول نقل التناقض بيننا وبين الصهيونية العالمية والإمبريالية الأمريكية إلى تناقض بيننا وبين الاتحاد السوفيتي.

ورغم قناعتنا الكاملة بحتمية الصداقة الاستراتيجية بيننا وبين الاتحاد السوفيتي ودول المعسكر الاشتراكي الأخرى، فإن فراغ المنطقة لا يمكن أن تملأه سوى القومية العربية وأن يملأه أبنائها المناضلون المخلصون في الحركة الوطنية والتقدمية العربية.

لقد تطورت شخصية كمال ناصر في قلب الأحداث ومعها وصعد به الكفاح إلى مصاف القادة المستولين عن توجيه المقاومة، ولم يعد بإمكان الصهيونية أن تكتفي بإبعاده في حراسة جنودها كما حدث من

(٥) فلسطين الثورة ١٦/٨/١٩٨٢.

قبل في نهايات ١٩٦٧، لقد أصبح صوتا واسع الانتشار لكيان المقاومة الفلسطينية، وصوتا بالغ التأثير، ناضج الرؤية، ومن ثم يكمن خطره في تهديده لمصالح إسرائيل والإمبريالية الأمريكية والرجعية العربية، وفي فضحه لمخطط التصفية والاستسلام، والضالعين فيه.

وقبل العاشر من أبريل ١٩٧٣، كان اسمه والأماكن التي يرتادها بين أسماء كثيرة وأماكن أخرى قد حددت باللون الأزرق على خرائط وكروكيات الصهاينة المستوردة من البنجابيون، وكان القتلة يجوسون في بيروت الوادعة يتناولون طعامهم في مندياها ويقيمون في فنادقها يدرسون على الطبيعة موقع العمليات، بمساعدة عناصر داخلية، إلى أن انتهوا من إعداد كل شيء.

وعندما ذهب كمال ناصر إلى مكتبه ذلك اليوم، كان كل ما حوله يتهاوس بالمصير الفاجع، والموت الذي انتظره طويلا يحوم حوله، ولعله وهو الشاعر المرهف الشعور ذو الضمير النقي، قد استمع إلى بحر بيروت يحذره كما حذره أصدقاؤه والمقربون إليه من النهاية المتوقعة، والتقطت حواسه رائحة المنية الغامضة وهي تتسرب ممتزجة بهواء المدينة مشبعة برائحة اليود والطحالب المائية، فابتسم ابتسامته الطيبة. محتفظا بمرحه الدائم، متذكرا كلماته الأخيرة التي خطها لفلسطين الثورة، أن فلسطين أكبر من القيادات والأشخاص ولا بد أن يذوب الجزء في الكل، وأن يذوب الكل في الثورة، حتى لا تسقط الثورة، وعكف على عمله، وعندما داهمته عرفته سببته ربما للمرة الأولى والأخيرة كثافة الضغط على زناد مسدسه الصغير، وهو الرجل الذي ناضل بالكلمة

طيلة عمره، وأطلق عدة رصاصات صائبة على مهاجميه، قبل أن تتراشقه النيران الآتمة وتجندله فيسقط مضرجا بدمائه.

والذى لم يعرفه كمال ناصر، وهو يغمض عينيه على ثقب الطلقات التي اخترقت جسده، أنه لم يكن الوحيد - هذه الليلة - الذى أطبق عليه الظلام فجأة بانقطاع تيار الحياة وأن هناك آخرين امتدت إليهم نفس اليد، نفس اليوم، ونفس اللحظة، محمد يوسف النجار - تم الإجهاز عليه بعد أن سقط جسد زوجته الذى وثب ليحميه ويحول بين الرصاص وصدره، بينما أطفالهما مشدوهو الحدقات يستدير بأعينهم الألم، ويقتلهم الخوف، كمال عدوان، أفاق من حلم الحياة بين أحضان زوجه على منحدر الموت المغتال.

"ثلاثة أودية من غسل قان.

لثلاثة أزمان.

يصيرون وضوء الأرض... وضوء الشمس.

يصيرون الأب والابن والروح القدس.

ثلاثة أثلاث في جمع واحد"^(١).

أما القتلة، فلقد مكثوا في دار سفارة الولايات المتحدة الأمريكية بعين المريسة يوما أو بعض يوم إلى أن تمكنت طائرات الأسطول السادس العمودية من نقلهم إلى عرض البحر بأمان.

(١) يوسف الخطيب - سريناد القمر الأسمر - إلى ثلاثة الخالصة، ثلاثة توشيعا، ثلاثة نهاريا، ثلاثة أم العقارب، إلى جميع ثلاثات الحب الفلسطيني الكبيرة، منذ ما قبل ثلاثة الثلاثاء الحمراء عام ١٩٣١ إلى ما بعد ثلاثة ليل الفردان ١٩٧٣.

الحس الطبقي

آفاق الفن وحدود التاريخ

من غير المنتظر، أن يلتفت الشعر المقاوم - بداية - إلى المشكلة الاجتماعية، إلا من خلال منظور المجاهدة والكفاح الوطني، وهو منظور محدود على الرغم من إنسانيته، ومن كونه مسددا نحو الاتجاه الصحيح، بواقع ظروف القضية الوطنية في تعلقها الميرير وحركتها الدائبة النضال ضد الاحتلال الأجنبي.

ولقد تفاعلت التجربة الشعرية لكمال ناصر، تفاعلا كاملا، بعاطفة التحدى الوطني واستغرق موضوعها الحنين لاستعادة الأرض العربية من مغتصبيها، ناثرة على القهر الإمبريالى، وترامت الرقعة الوجدانية لعالمه الأدبي داخل هذه الحدود.

إلا أن انصراف التجربة الوجدانية لاحتضان مشكلة ذات وضع معين، وقديسية خاصة، تفرض مفاهيم الوحدة والائتلاف الوطنى على معالم التجربة الفنية، ومصطلحاتها، ودلالاتها وتصوراتها لا ينبغي أن يعفيها من تبين حقيقة القوى الاجتماعية ومواقعها الطبقيّة داخل إطار حركة التحرر، التي تمد ظلالها على الجميع، وتوظف الكل لتحقيق

الهدف الوطنى، والاستدلال على الحس الطبقي للشاعر لن يتم في هذه الحالة بعيدا عن الانفعال والتفاعل بالعاطفة الوطنية، بل بالتعرف على سمات وملامح المقاتل، إلى من ينتمى؟، وما أساليبه؟

يتنامى العالم الوجدانى على ضفاف نهر التحريض والاستتارة، صاعدا من قمة الفن إلى قمة التأثير في حركة الواقع، ويضرم الاحتكاك الفعلى والمباشر بالتاريخ نيران الواقعية بعناصر التجربة الأدبية، فتترع الحقيقة الفنية مسوح الغموض والتعميم. وتتساق مع الحقيقة الخارجية، مأخوذة برغبة ثورية صادقة في إحداث انقلاب على مستوى الحدث يعادل الإرادة، فلم يكن كمال ناصر مجرد شاعر مقاومة، وإنما شاعر ومقاوم في الآن نفسه، ألقاه التاريخ بقوة في أتون جحيم منطقة منكوبة بأشرس الهجمات البربرية، فارضا عليه أن يسهم بمجده وحياته لتحويل هذا الجحيم إلى جنة للمتطلبات الإنسانية المألوفة، في الحرية والكرامة، فينطلق العالم الوجدانى متجاوزا التأمل المستكين للحكمة وفلسفة الوجود إلى لحظة مشبوبة التغنى للنخطة والمسار والطرق.

تبرز التجربة الشعرية الدور الرئيسى الذى تلعبه الشعوب في معارك التحرر الوطنى، وتتطلع بعقلانية إلى تنظيم الجماهير، وحشد طاقتها وتسخير كافة إمكانياتها "فيا وطنى أن تبغ عزا ورفعة.. تموج بأحلام تظللنا دهرًا، فنظم صفوف الشعب نظم سبيله.. على هدف واع وحرية حمرا، ندق بها باب الحياة عقيدة.. ونلهب في أرجائها العقل والفكر"، وهذه

الروح العملية، تتقدم الرؤية الوجدانية خطوة للأمام عن تجربة الشاعر العربي الحديث، والتي من أشهر نماذجها قصيدة أبي القاسم الشابي "إذا الشعب يوماً أراد الحياة... فلا بد أن يستجيب القدر".

وإذا كان الشابي قد أكد على إرادة الشعب، وأضاف كمال ناصر ضرورة تنظيمها، فإن كلا منهما لم يتوقف ليمعن النظر ويدقق الرؤية في الوزن الثوري المتباين للقوى الوطنية المختلفة المطالبة بالتنظيم والكفاح. فمصطلح الشعب يتألق بدلالة الائتلاف وبمفهوم الوطن أو الأمة بأسرها.. وبالتالي يبدأ المنطلق الشعري زحفه التحريضي من الجرح الدامي مستصرخاً همة الشباب، أقدر الفئات وأكثرها جرأة ومرونة وتحملاً، وأعظمها بذلاً وتضحية وثورية.

يا شباب البلاد ما أضيع العمر

إذا الشعب لم يشر لهوانه

إنما الجند وثبة ودماء

فاتركوها تسيل في ميدانه

هو ذا الساحل الجميل يناديكم

ويشكو الهوان في نسيانه

هو ذا الموج يلطم الصخر حزناً

فأصيخوا للموج في هيجانه

واسمعوه يقول أين رجالي

يالعار التاريخ في دورانه

يعكس التداعى بين مصطلحي الشعب والشباب حقيقة القناعات الفكرية التي تأسس حولها العالم الوجداني، والتي لم تقم الجسور بين الأوضاع المادية وحركة النضال، وهو ارتباط كان جديرا بمسخ هذا التداعى واستناد البطولة الوطنية على أكتاف الفئات الاجتماعية الثورية، وعلى بلورة معالم التحريض بقيم مختلفة عن قيم المجد والهوان والحزن والعار... وإن كانت التجربة الشعرية قد تبينت البؤس الاجتماعي داخل تجربة التحرير، ومس التصدي الوطني الوضع المتردى بصورة واضحة ودقيقة:

بروحى بلاد شرد الغرب شعبها

فراحت تقاسى من دسائسه الجورا

بلادى وللآمال فيها بقية....

إذا مسها الإيمان يضرمها جمرا

هويت فذل الشعب ياسا ولوعة

وأحنى لدى إذلاله الرأس والظهرا

وقيل إذا مر الأنام بلدربنا

هنا لاجىء يحيا على دربه فقرا

جبان مريض جاهل لا تثيره

مآسيه بل تملى على روحه الصبرا

(العودة الكبرى)

ومع هذا، فبؤس المخيم المتعلق بالتداعى بالشعب، بؤس قاصر أن يتحول إلى قوة وثورة، وظل بانسو الخيام الجياع باعنا حركة النضال، دون أن ينخرطوا في صفوف المناضلين الأبطال، وظلت الخيمة موضوعا للوعى دون أن تحتل مكانة (الواعى)، وتقيم التجربة الشعرية علاقة وصاية بين (نا) فاعلين قوية مدركة رشيدة جديرة بالحقوق والواجبات متسيدة وبين بؤس اللاجئيين، ويتمادى تصميم الخيال الشعرى على حرمان البؤساء من نعمة الإدراك، ومن الخروج على مصير الشئ للارتقاء لمصاف الإرادة الإنسانية الفاعلة والمؤثرة.. والتي خصت بها (نا) الشاعر ونخبته المتعالية.

خياما تعلمنا أن نطل

قلوبا تجمد فيها الحجر

خياما تذكرنا بالضحايا

تتأثر في السهل والمنحدر

خياما تشير لمعنى الحياة

العميق يهذى الحفر

فيرعد في صدرنا الانتقام

وترقص فينا طيوف الصور

(انتفاضة الخيام)

ويسعى التصوير الأدبي إلى إقامة الجسور أمام (نا) النخبة للانطلاق بالمقاومة للعودة إلى الديار السلبية، دون أن يصل إلى التشكيك في

الوزن الوطنى والثورى المغالى فىه هؤلآء؁ وىرتهن كر الجحافل بلحظة إدراك الوضع الاجتماعى المتردى للاجئىن وىعمل الخىال الشعرى على اختلاق الموقف الكفيل بتساعد البؤس لمستوى فهم السادة كشرط لحدوث الفعل المقاوم؁ وتحقیقه للأمل الوطنى.

رمضان یا شهر الصيام
لم لا تعود إلى الدیار
فیحس رهط المترفین
السادرین الغافلین
بالجوع؁ لو بعض النهار
فلربما یتألون ویدرکون
معنى الطعام
ولعلمهم یتساءلون
ویشعرون ویفهمون
أن البطولة أن نکافح... للرجوع وللحقیقة فى الخیام
(صرخة الخیام)

والرقة التى تعامل بها التجربة الشعرية رهط المترفین الغافلین غیر المتألین أو المدرکین تنقلب إلى نوع من الشراسة النابیه؁ وتناسى التجربة دمايتها؁ حین تعامل مع رهط المظلومین؁ فمن الطبیعى حین تقطع التجربة الوجدانية الصلة بین البؤساء والتاریخ بإنکار إمكانية تصدیرهم لقيادة الكفاح؁ والانخراط الذاتى فى المقاومة؁ أن تنعتهم

بالصفات اللإنسانية، وما دامت القناعة الفكرية الأساسية تميل إلى تبني التصورات البرجوازية، حول دور الفرد في التاريخ وأحقية النخبة، فإن عليها أن تتحوط لعزل الجماهير عن العالم الإنساني بنفى إنسانيتهم نفسها، وهي بلا شك ملزمة استكمالاً لهذه التصورات إلى تقديم الجماهير بسمات غير آدمية كقطيع من الحيوانات، وتنتقى التجربة الشعرية مصطلحاتها من قبيلة الأفعال اللإنسانية شاحنة الكلمات بإيماءات وإيماءات حيوانية..

وإذا الشعب صامت يعض العسف
ليمضى الموتور في أمعانه.
خائف واجف يلذ له الظلم
ويعشى به على جثمانه.
وكان البلاد ملك سواه
لم يسل فوق أرضها من جنانه.
رب شعب في غمرة الذل أضحي
ليس يدرى حمارة من حصانه.
(الزعامات والشعب والطحين)

وقد يكون من المقبول غضبا إحقاق الخوف بالشعب المقهور، حين تتأسس لوحة الفرع على جوانب اللوحة الشاملة للأوضاع العامة، التي تجعل من الرهبة أمرا مشروطا بهذه الأوضاع وليس بطبيعة الجماهير نفسها، إلا أن كثافة فعل (يلذ له) هنا تمد ظلها السوداء وتغطي ألوانها

الداكنة أفق الرؤية الوجدانية بإبراز الخوف كصفة نفسية أصيلة تمس التركيب الخلقى للشعب المتمتع (بمضغ) العسف، وهكذا يطاح بقوة المظلومين وأحقيتهم في الماضي قدما بلا وصاية من (نا) الصفوة المختارة.

وتفصح التجربة الشعرية عن هذه المعاني مباشرة، دون حاجة لاستخدام قاموس الأفعال اللابشرية في تجسيم حيوانية الجماهير، فتقدمها كخراف هزيلة مستسلمة لقسوة المصير، لا تحركها من مرقدتها غير عصا الراعي القدير.

تجمل الشعب بالحرمان والتزمت

خرافه الهادئات الصمت والأدبا

نام القطيع على أحلامه ألما

وراح يكبح في أضلاعه الصنخبا

ضريبة الجوع هذه سوف يحملها

وأن تحمل من إذلالها النصببا

بمنظورها الفردي، لم تهتد التجربة الشعرية، إلى الوزن الثورى والوطنى للقوى الاجتماعية المطحونة، كما لم تتوصل بداية إلى تصور صحيح لتأثير الأوضاع الطبقيّة والمصالح المتباينة على المواقف الوطنية للفئات المختلفة، وانزلت بتصوراتها لتغليب التفسير الأخلاقي للظواهر، وفي حين تترجم التجربة الوجدانية الركون الثورى بعوامل

داخلية كيلاذ له العسف، لا تنجح في حملتها الشعواء على الزعامات الخائنة، أو في تقدير دورها تقديرا سديدا، وظلت مشكلة القيادة من المشاكل الملحة على الوجدان الأدبي، وعلى ذهن كمال ناصر، دون حلول سليمة. لقد مست التجربة الشعرية بعاطفة منحقة موقف الزعامات، وجرفها الغضب في تياره لإدانتها، إلى الحد الذي أنكرت فيه انتماءها للشعب، إلا أنها لم تستطع أن توصل البواعث الحقيقية لعدم فاعلية القيادات في تحقيق الحلم الفلسطيني، وغابت الرؤية الوجدانية في ضباب التفسيرات والسخط الأخلاقي، تانها في دغل الواقع الاجتماعي غير المتميز التكوين. فهي إن أعلنت سخطها على هذه الزعامات الجشعة النهمة إلى الكسب والربح، إلا أن منطلقها الصحيح ما أسرع ما يسلم عالم القصيدة للمثالب الأخلاقية، فتطفو التجربة على السطح دون أن تصيد الحقيقة من الأغوار السحيقة.

ما أضع البلاد إلا طفاة

أصبحوا للغريب من عبدانه

كلهم مجرم دخيل على الشعب

يرى راقصا لدى أحزانه

صرعتهم سلافة الكسب والربح

فأضحوا للبغي من ندمانه

وأباحوا هتك الحسان فمرحى

لأبي يبيح هتك حسانه

كان بالأمس قبلة للمخازى
تأنف الكأس أن تطوف بحانه
يتمنى عطف الكرام فلما
بسم الدهر واعتلى في مكانه
لاح سم الأذى على ناجذيه
وأطل الدهاء من أجفانه
فمضى يرهق الضعاف ويملى
بطشه عنوة على أقرانه
والزعامات قلوب خائفات
كلها للنفاق خيال رهانه
(الزعامات والشعب والطحين)

بمنظور فردى ومنطلق أخلاقي، لا يمكن للتجربة الشعرية أن تفصح
عن تجربة واقعية ذات دلالة ثورية جلية. إنها مقيدة بتشوشها أكثر منها
قادرة على تقديم رؤية واضحة عن الواقع، وعادة ما تتسرب الشحنة
الوجدانية في هذه الحالة إلى مسارب هامشية غير ذات أهمية، إن لم تكن
مجانبة. مهما توفر للشاعر الصدق الفني القمين بترشيد التجربة
واهتمامها للحقائق الجديرة بالتأمل، والتناول.

ولقد وقف كمال ناصر - كشاعر - بجوار الأمانة الفنية ونزاهة
الشعور ملتزما بالصدق، غير أن النوايا الشريفة، ودقة الملاحظة الفنية لم
تستطع أن تثرى التجربة الوجدانية وتخصبها بالتعدد، ولا أن تصل بها

لمصاف التنبؤ والتشوف العظيم. لافتقادها للحس الطبقي العميق، وظل العالم حوله مرتعا للشرور والدسائس والمظالم، مرفوضا بقبحه ودمامته، دون أن يتوافر للرفض القاعدة الشعورية السليمة اللازمة لإعادة ترتيب معالم الواقع، وبناء عالمه الفني المكين، والمستير، ولا شك أن هذا قلل من القيمة الحقيقية لشاعريته، ليس فقط بمقارنته بشعراء المقاومة الفلسطينية في أجيالها الحديثة. وإنما بعقد هذه المقارنة بينه وبين الجيل السابق عليه من شعراء المقاومة وجيل شعراء ثورة ١٩٣٦، إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبي سلمى...

وإنصافا لكamal ناصر ولموضوعية البحث سنكتفى بمقارنته بإبراهيم طوقان المنحدر من صلب أسرة إقطاعية شهيرة من نابلس، كما أنه مثل كمال ناصر تلقى تعليمه بالجامعة الأمريكية ببيروت، ونال ذات القسط من التربية البرجوازية بها. كما أنه ودع الدنيا في فترة مبكرة (١٩٤١) قبل أن يبدأ كمال ناصر حياته العامة (١٩٤٥) وبالرغم من كل هذه العوامل التي تميل إلى تغليب كفة كمال ناصر في الموازنة بينهما، نجد أن التجربة الشعرية لإبراهيم طوقان تميزت إلى حد ما بحس طبقي قوى، مكثه من أن يمد عالمه الشعري بواقعية إلى مساحات وجدانية شاسعة نسيها، وأن يبدع دائما التجارب الوجدانية المتجددة الحيوية موفرا للقصيد بمقائنها الفنية حد التعادل مع الحقائق الخارجية موجهها عالمه الوجداني صوب غايته، دون أن ينحرف لمهاوى التفسيرات المثالية والأخلاقية، وأن يضع صوته في الموقع الصحيح للوجدان الفلسطيني العام، محطما الحواجز الطبقية التي ينتمى إليها منطلقا إلى آفاق أرحب

للأحكام العاطفية، كما يبدو من حملته على ملاك الأراضي ودمغهم
بوصمة الخيانة.

أما سماسة البلاد فعصبة
عار على أهل البلاد بقاؤها
هم أهل نجدتها وأن أنكرتهم
وهم وأنفك راغم زعماؤها
وحماها وبهم يتم خرابها
وعلى يديهم بيعها وشراؤها

لقد استطاع صوت إبراهيم طوقان أن يتسلل عبر مفاهيم عشرات
السنين ودلالات مئات الأحداث وأن يتشابه اليوم لحد ما مع صوت
الموجة الثورية للشعر الفلسطيني المقاوم.

لمن أنت يا وطني العربي..
اتسعت فكنت البلاد جميعا..
وضقت فما أنت ألا لصف
جياحك
أو بائعك

(أحمد دحبور - طائرات الوحدات)

ذلك لأن التجربة الشعرية لإبراهيم طوقان التي لم تتنازل عن القضية
الوطنية لم تتنازل تحت أية دعوى عن حسها الطبقي، وحضور هذا

الحس الاجتماعي يسم تجاربه ليس بالصدق وحده وإنما بالأصالة
والعمق والاستتارة، ويساهم وجدانه الجدلي في تذويب هذه العناصر
كافة في مناخ تجاربه العاطفية على تعددها موفرا للعمل الإبداعي عناصر
الجمال والشرط الإنساني.

أرأيت مملكة الربيع
يعيد رونقها الربيع
ويتوج الراعي بها
ملكاً رعيتَه القطيع
آزار في رحب الفضاء
سفير دولته الرفيع
هايك ألوان تشع
وتلك أحيان تشيع
لمن الربيع وطيبه
وهواه والزهر البديع
فرح الربيع لمن له
أرض، وليس لمن يبيع
(لمن الربيع)

كشاعر صادق الوطنية، ونقى الشعور، حمل تيار الطهارة الفنية
التجربة الوجدانية على التجارب مع تطور الحركة الوطنية، بالتخلي عن
أوثانها بتحطم هذه الأوثان في الواقع، فبظهور المقاتل الفلسطيني ربيب

المخيم تصدعت القناعات العاطفية لكمال ناصر، وبدأ طريق الكفاح الشاق والمسلح يجذب بأضوائه الساطعة عالم القصيدة، بمرونة نادرة.. وطواعيه فكرية، وتعكس التجربة الوجدانية تمزق القناعات الفكرية البالية وانبثاق الإيمان الجديد بالانطلاقة الثورية المسلحة، مروراً على أنقاض التصورات الذاتية لقد حمل التطور الجديد في ثناياه حملة حساب للنفس، ونقدا ذاتياً لها، ورفضاً لتصورتها المريضة كضرورة لبدء مرحلة حاسمة من تطوره الشعري.. والنفسى.

ثورتنا للمجد يا شعبنا

ماتت بعينها طيوف المنى

وانهزم التاريخ في دربنا

وتاه في صحرائنا مشخنا

لا بطل يعيش إلى حنقه

مؤزراً مغامراً مؤمناً

ذلت قلوب الناس واستفحلت

عصاوبة مجرمة بيننا

صرخت في يأسى وفي حرقتي

ما أحقر الشعب وما أجبننا

ولاح لى طيف غريب الخطا

يشقى بأحلام العلى موهنا

يدب في مشيته راعشا

وبين عينيه يمجج الووى

وراح يحكى عن بطولاته
وسحر ما أبدع بين الدنى
وأصغيت في ذعر له قاتل
وقلت يا طيف المنى والهنا
هذى بلادى أصبحت ملعبا
يحكمها في الدهر أهل الخنا
فهل تصديت لطغيانهم
عساك أن تحيي لنا مجدنا
يا طيف هذا خنجرى في العلى
فاضرب به أضرب جارحا مؤمنا
فأطبق الطيف على نفسه
ذعرا وولى شاحبا أرعنا
يدب في مشيته راعشا
وبين عينيه يموج الونى
يردد الوهم صدى نفسه
ما أحقر الشعب وما أجينا
ولاح دمعى فوق أجفانه
يا خجلى في المجد هذا أنا

(الطيف الجبان)

لقد بدأ نخلى (الأنا) عن زهوها القديم وعن إيمانها بفاعلية (نا) النخبة الذى منحها الحق في التعالى والقيادة والترفع، بعد أن تبدلت الأوضاع الكفاحية للقوى الاجتماعية وتغير أسلوب المقاومة والنضال، ومسيرا الواقع انبثق إيمان كمال ناصر بالشعب الفقير كقوة ثورية تهيأت لها الظروف، بعد أن شقيت الحركة الوطنية الفلسطينية بقيادتها القديمة، وتخطت في طريق العودة وعمم الأساليب المتبعة. وتسجل القصائد هذه التغيرات بنقلة واضحة لمركز (نا) المتكلمين والتي كان لها موقع الفاعلية في (خياما تعلمنا أن نظل قلوبا تجمد فيها الحجر) إلى موقع متدن يحمل أمانيه للفئات الأرسخ وطنية وثورية.

آامنا والشعب يحملها
عذراء تعرف في سما الخطب..
نبضت بدنيا الغدر دامية..
تحذو بنا في موكب العرب..
يا سارق الأحلام في بلدى..
آمنت بعد الله بالشعب
(إيمان)

يتحرك المسار العاطفى للتجربة الوجدانية، من محور الدعوة لتنظيم الصفوف إلى موقع التمجيد لفدائية الأنبياء الصغار، أنبياء البؤس والفاقة والأسى، ويتجرد مصطلح الشعب من رحابة التعميم مكتسبا لونا جديدا معلقا بندقيته على أطماره البالية التي تغطى جسده المحروق المحروم من مسببات الحياة إلا ما تهيؤه له مائدة وكالة الغوث.

وتغير النبع الذى تستقى منه التجربة الشعرية مفاهيمها حول
بواعث الثورة من نبع نفسى ضحل، كحفظ ماء الوجه وتضميد جرح
الكرامة والكبرياء المهيب، وإبء المهانة والذل إلى نبع نفسى أعمق منه،
باستناد إرادة التحرر والانطلاق الثورى إلى بواعث أقوى تتمثل في
المشاعر المترتبة على الأوضاع المتدنية للواقع المادى الأليم "فانطلاق
الحرمان أخلد نصرا في مجال الكفاح والاقترام" وبناء على هذه
المعطيات الوجدانية تحولت صياغة التحريض من استشارة شباب الأمة
إلى استنهاض همّة بؤساء الخيام المحرومين.

مزقى يا خيام أردية الذل

وميدى مجنونة بالنيام

مزقى هذه الخرائب وارمى

ببقايا أطمارها والخطام

وذريها على الرياح عويلا

مرهقا في مسامع الحكام

وانشريها على التلال عذابا

خالدا في خواطر الظلام

فإلى أي مدى تبنت التجربة الشعرية مشكلة العدالة الاجتماعية،
كمشكلة لا بد أن يبرزها النمو الوجدانى، استكمالا لجوانب الرؤية، التي
خلعت دور البطولة وأناطته بفدائى المخيم المطحون.

لقد استمرت التجربة الشعرية مصررة على إظهار القهر الاجتماعي من ثانيا المعضلة الوطنية، ومرهونا بوجود هذه المشكلة، وهي أن قامت بالإشادة بالدور المجيد للبطل المجهور اجتماعيا، وببذله الدماء على ساحة حركة النضال الوطني، لم تشف عن أدنى نوايا لتغيير الواقع الذي يتحرك منه بئس الخيام الفقير، كما لم تسفر عن الوجه الحقيقي لدعوتها الاشتراكية ومضمونها، ومن هنا يأتي اختلاف التجربة الشعرية لكامل ناصر وتميزها على مسار التطور الأدبي لحركة الشعر الفلسطيني، فتباين عن الموجة الثورية الحديثة للشعر المقاوم في عزفها على وترى المشكلة الفلسطينية الوطني والاجتماعي معا "بعد اندلاع الجوع تمتشق القبيلة، أحزافها البيض النيلة، وتمز أعناق السمان من الرجال" (أحمد دحبور - البحر والمسافة).

فهذه الحدود البعيدة التي تناهت إليها حركة الشعر الفلسطيني لم تغر التجربة الوجدانية لكامل ناصر بالمغامرة والسفر إلى البعيد فيما يخص شكل المستقبل، على الرغم من حسها الوطني الرفيع، ربما أن الذوق الثقافي الذي حمل تجربته الشعرية ما كان بإمكانه الإبحار إلى هذه الشواطئ بشراعه الممتلئ بالتناقضات والمشاعر المتضاربة.

لقد رأينا كيف أن الإرادة الثورية انطلقت من عوامل نفسية أعمق من تلك التي دأب العالم الوجداني على النهل عنها وترديدها، وإن احتفظت بطابعها النفسي، وهي إذ تلغى الدور الحاسم للعامل المادي وارتباطه بالانفجار الثوري تقوض شرعية الثورة وتهدم صرح نظرية الحق، ويتقلص

بالتالى مفهوم العنف الثورى إلى مجرد مشاعر وشهوات حيوانية وأحقاد
وضغائن ورغبات في الانتقام.

حب الحقد بالقطيع وثارت

شهوات الجراح في الأغنام

واستفاقت ضغائن الشعب تدعو

حقها في الوجود والانتقام

فأنهضى يا جموع وانتشرى حقدًا

وحوطى الكفاح بالاعلام

واعصفى بالدخيل وأزهى على

الحب ذليلا بل واهزأى بالسلام

ومن غير المتصور أن يتم قبول هذه القيم إلا تحت ضغوط الواقع
الاستثنائى الذى يفرضه وجود الاحتلال. فالقاعدة العامة للمجتمع الإنسانى
هي الحب والسلام. لا الأحقاد والضغائن التي يتم تقبلها بصفة مؤقتة.

ومن هنا تبرز حدة التناقضات لا التي تجلت على مستوى التجربة
الشعرية، بل التي عانى منها كمال ناصر وتمزق على حساب اكتمال
الشخصية والتكامل النفسى.

فعلى صعيد الواقع تعاطف كمال ناصر مع حركة الكفاح المسلح،
وخص بعاطفته الفدائى كليا وإلى النهاية، مؤمنا بالبندقية كالطريق
الأمثل. للجهاد ضد عنصرية إسرائيل، وتقبل حتى تصوره المشوه لفكرة

العنف الثورى، بعد أن نزع مشروعيته وقلصه إلى مجموعة من البواعث النفسية الشريرة الفاسدة. التي تتنافى مع المثل الإنسانية. وكان عليه بعد هذا أن يقسر نفسه على الانسجام ويجبر تفكيره على التلاؤم، والرضوخ لهذا التصور، ولكنه من بداية الطريق تصادم مع نفسه لا كمتقف برجوازى فحسب وإنما كمسيحى شديد الإيمان بالقيم المسيحية، وأملى عليه تناقضاته الفكرية أن يحسم مشكلة الأخلاق المسيحية وقيم الطيبة والصفح والسلام لحساب فكرة الشر، ولقد كان في غنى عن كل هذا التشوش لو أنه أدرك مشروعية العنف الثورى وموضوعيته، بتأسيس تصوره لعوامله على الواقع المادى وظواهره دون أن يجرفه التيار الأخلاقى لتفسير الأمور إلى الحد الذى يضطر عنده إلى قبول اللاأخلاقى والتنازل عن الإيمان.

باتضح معطيات التجربة الشعورية، وقناعاها الأساسية، فيما يتعلق بالحس الطبقي قد يكون من الأهمية تبيين اللحظة الاجتماعية في شعره.

ومما لا شك فيه أن طبيعة تصوراته الفردية تركت بصماتها على هذه اللحظة، فلم تستطع مشاعره أن تفلت منها وتشق طريقها بين المتاهات الكثيفة المحدقة بنظراته الوجدانية لتصل إلى الأبعاد الحقيقية لفكرة الظلم الاجتماعى، وانقسم العالم إلى ضعفاء وأقوياء لا إلى فقراء، مستغلين، وأغنياء مستغلين، وبهذا التصور تماوى الواقع من وضع طبقى إلى عيب أخلاقى، ومن ظاهرة عامة إلى حالة خاصة تثير الشفقة والرثاء كحالة اليتيم.

من لهذا الضعيف في الزمن
الظالم غير الدموع ملء أهابه
من لهذا القلب الشقي المعنى
جردته الأيام من أحبابه
من لهذا الشجي يغمره الحزن
سوى المعشاة من أكوابه
(اليتيم)

بمنطلقها المنحرفة تنحو التجربة الشعرية باتجاه إظهار الشزور
المرتبة على هذه الحالة فيما يتعلق بأثرها على استتباب أمن الوحدة
الاجتماعية، تمهيدا لاستثارة مشاعر النخوة والرحمة بصدر الهيئة
الاجتماعية للعطف على هذه الحالة وأدراكها قبل أن تتماهى في
سقوطها لمهاوى الضلال. ولا يخطر ببال التجربة الشعرية أن تبلور
القهر الاجتماعي متعاطفة مع الحق المغتصب، ضد جنائية المجتمع ببنائه
الشاذ على المصير الإنساني.

سار في حمأة الخنا لا يبالي
ميت الحس فاقدًا لصوابه
فإذا الداء ارقط يتلوى
فوق صدر مشى الضنى في رحابه
عابث يزدري الفضيلة جهرا
رب مستهتر سعى في خرابه

لم يكن مجرماً وما كان وغدا
إنما اليتيم مجرم في عقابه

وبواقع هذا التصور تصبح مسألة الأوضاع الاجتماعية مسألة
حظوظ، والتفاوت الاجتماع صدفة، والظلم قدر، والبؤس استثناء وما
علينا أمام هذه (الحالة) الاستثنائية إلا أن نبسط جناح الذل من الرحمة،
متيحين الفرصة للمصادفات السعيدة والحظوظ الهنية لتلهو الأقدار
فيصبح الضعيف قويا والمحتاج غنيا، ولا بأس أن يشفق الأقوياء لانتشال
الضعفاء من مغبة الانحدار والضياع بالإحسان والبر والحنان.

كم يتيم جنت عليه الليالى
عبرى الفؤاد أروع نابه
لو حبه الأيام حظا وعظفا
لمشى المجد والغنى في ركابه
أيها ذي الأكف سلى حنانا
وانبرى كالغمام عند انسكابه
إنما أنت راحة الله للإحسان
بل أنت ديمة من سحابه

لم يشغل "الصهيوني" حيزا متسعا من رقعة التجربة الشعرية لكمال ناصر، بل انكمش في زاوية من زواياها، ولم يسمح التناول الشعري له بالبروز مجللا بالعار، أو مصحوبا بمشاعر عدااء لاهبة مضرجة بالغضب والتحدى، كما قد يتصور من شاعر وطني، ومن تجربة شعرية تتنامى داخل إطار المقاومة والنضال، فقصيدة "يا دولة التيمس ابعدى عنا أذى الشعب الطريد" قصيدة في الحقيقة لم تتكرر. على امتداد عمره الأدبي لقد أفاق من كابوس النكبة، ليتجه بروح عملية متوثبة متلمسا طريق العودة، بالدعوة إلى الوحدة وتنظيم الصفوف وحشد الإمكانيات المادية والروحية اللازمة لإحياء الحلم، وتحقيق الأمل، أما ثورته على المهانة والقهر الوطني فلقد وجهت كل اهتمامها للواقع العربي معرضة بسلبياته مستهدفة إيجابياته. باحثة عن المقومات الواقعية التي تجعل من الإرادة الوطنية والقومية كيانا ملموسا مؤثرا وبناء.

وبهذه الروح العملية أهملت التجربة الوجدانية باتزان إشاعة روح البغضاء وإيغار الصدور وفتون الهجاء والحماس اللاهب المفرط في سخطه وفي غضبه، وتدخلت كل هذه العوامل لتغاضى التجربة الوجدانية عن "الصهيوني" وإن استهدفته في النهاية بكل ما تدعو إليه، وتكافح من أجله، ولم تتوقف اللحظة الوجدانية مركزة أضواءها الشعورية عليه ولم يعد في تصوراتها أن يكون صعلوكا من الصعاليك المتطفلين على التاريخ، ما أسرعها في الانصراف عنه جادة في البحث عن عوامل القوة والانتصار.

أيها الشرق والخلافات ألقنت
من ظلام الأذى عليك السدولا
كل قلب لديك يرزأ بالخطب
ويشكو التشريد والتنكيلا
حسبنا حفنة الصعاليك تغزو
من فلسطيننا الربى والسهولا
وطن المجد والكرامات لسنا
بك نرضى مشارف الكون غيلا
فالجنان الخضراء تدعو بينها
تنادى بهم وتأبى البديلا
تتمنى لو ينثني العرب شمالا
في مجال الكفاح سيفاً صقيلا
(يا رسول الجمال)

المعطي الجوهري للتجربة الشعرية، يمس واقع القضية، كجريمة،
جريمة العمر هذى من يفسرها؟... "فجريمة من هي إذن، إن لم تكن
جريمة صهيونية، تشير التجربة الوجدانية بإيماءة خفيفة إلى الغرب"
بروحى بلاد شرد الغرب شعبها... فراحت تقاسى من دسائسه الجورا
"كما أنها تشير بأصبع الأرقام، بوضوح إلى الرجعى العربى والزعامات
العميلة:

فلاح لى كوكب بالمجد مؤتلق
يشع في جنبات الأفق ملتها
فرحت أسأله عن سر نكبتنا
فاهتز في برجه المخزون واضطربا
وراح يرمى شواظا من صواعقه
يشير فيها إلى حكمانا غضبا
(جريمة الأمس)

تتعلق التجربة الشعرية لكمال ناصر بأذيال الواقع، فإذا كان قد أقام صرح معطياته الوجدانية على أساس الحقائق الخارجية، فلقد طرح تصوره التاريخي من خلال منظور أخلاقي. وإذا كان قد توصل إلى الجوهر الاستعماري للمأساة، وإلى العلاقة التي تربط بين إسرائيل والامبرياليين البريطانيين والأمريكية، فإن تفسيره الوجداني لا يرقى لمستوى وعيه التاريخي. وتتوتر التجربة الشعرية باتجاهها الفرديّة، لتسرب طاقة الوعي الشعوري عن المسارب الصحيحة، ويترلق الأداء الشعري بجدّة إلى مجموعة من التصورات النفسية.

يا عبيد العبيد يا دخلاء
ضجعت الأرض منكم والسماء
اضحكوا واهزلوا ففي غفلة العمر
سيلهو ويضحك اللقطاء

الدعارات والضلالات تخزى
بجهاد قامت عليه النساء
وعيون التاريخ ترقب حرى
دولة صاغها الخنا والبغاء
اسألوا الإنجليز كيف استباحوا
عرض أبكارها فهن الفداء
أسألوهم فكلهم في هواها
نزوات مريضة واشتهاء
شيدوها مستنقعا للدنايا
فازدهاها التقويد والخيلاء
دولة للخنا أقام بها
الأثم وماجت في رحمها الفحشاء
لأميركا فيها يد وعليها
من تعاويذها رقى ودعاء
ولدتها مسخا سفاحا حراما
فهي قد أجهضت بها شوهاء
(اللقطة - ربية الإنكليز والأمريكان)

يمهد النبض الأخلاقي للتاريخ - في التجربة الشعرية - الطريق
لبلورة المعطى الوجداني الأساسى لمجموع التجارب، والذي انبت عليه
أبعاد الرؤية الشعرية وتنامت على امتداد العمر الأدبي، فكما اتجه

الأداء الفني اتجاها نفسيا وأخلاقيا في تفسيره للظاهرة الاستيطانية، كظاهرة دعمتها التروات الفردية لرجال الإمبريالية البريطانية تناول أيضا بالكيفية ذاتها موقف الزعامات العربية والقيادات الفلسطينية كما سبق القول.

وتظل محكات التجربة الشعرية ومنطلقاتها، محكات ومنطلقات صحيحة على الرغم من تقلص فكرة التاريخ. وهو ما يبدو ملموسا بوضوح في اتجاه عاطفة العداة إلى إسرائيل وكل من إنجلترا والولايات المتحدة. وإلى التشهير بقيادات الحركة الوطنية الفلسطينية. ودورهم البائس في بعض المراحل السابقة.

يجب تحول الظاهرة الواقعية إلى ظاهرة نفسية وأخلاقية التفسير السديد للأمور، وتخبو الطاقة الثورية للتجربة وتقل قدرتها على الإقناع العاطفي ووظيفتها في التحريض والاستثارة إلى حد ما، بغض النظر عن المتلقى. فتوالد المشاعر في وسط آخر غير الوسط التاريخي بحركته المادية المتعقلة تتلاشى في أفق الرؤية الفردية الحقائق الخارجية وبالتالي تتخلخل الحقائق الفنية المعادلة الموازية لها، وتهمز الواقعية، وتتحول المأساة الفلسطينية إلى مجموعة من الخيانات والعيوب الخلقية المشينة والاستثنائية من قبيل "فمرحى لأبي يبيح هتك حسانه".

ومن الطبيعي مع تقلص فكرة التاريخ، في دوامة الواقع غير المتميز التركيب، أن يهبط الاستفسار بالنكبة إلى مواطن التساؤل "جريمة العمر هذه من يفسرها" وهو سؤال في محله، مادامت الأسرار قد

اكتنفت المواقف بتميع الحدود، وبغياب الحس الطبقي الكفيل بترشيد التجربة والتأمل. وإذا كان كمال ناصر قد وجد إجابة عند الغرب "ومن خلفها الغرب (الرخيص) يسوسها... وللغرب أخلاق إذا استعرضت تشرى" وكذلك عند القيادات "كل يوم لنا خطيب جديد... يتلهى عن حقها بخطيب"، فهذه الإجابات بلا شك لم تكن بالإجابات الحاسمة ولم يكن بمقدورها أن ترضى نزوعه إلى المستقبل - الحل، ولا أن تشبع حنينه التواق للعودة للدار التي اغتصبت.

ومن ثم اتجه المنطق الوجداني إلى بلورة قناعته الأساسية على هامش حسه الطبقي الخافت، ومشاعره الدينية القوية. وامتدت رقعة المعميات الشعورية لتشمل مجموعة الحقائق ذات الصفة الرئيسية والقيمة المتزايدة لتوضيح جوانب الرؤية وواقعيتها، وغلف معطى الخطيئة المأساة.

وبتجسيم المأساة الفلسطينية في المعطى الشعوري - الخطيئة، اشتد شعوره بالجرم إلى الحد الذي دفعه لأن يتمثل وزر الأنظمة والقيادات كجرم شخصى وربما دفعته الحساسية الذاتية المرتفعة إلى هذا الموقف الذى لا يحسد عليه، ولكنه من ناحية أخرى هياً له بآثارته لكوامنه الدينية أن يستخلص الأمل - الخلاص من فكرة الشر - الخطيئة، كما تصورها، وكما امتلكت مشاعره، وسيطرت على عالمه الفني.

ومن الخطيئة إلى الأمل تدفقت الروافد الوجدانية وتيقظت مشاعره الإيجابية مفتشا عن الطريق.

الفكرة القومية

لا يمكن الاستدلال بالقياس الإحصائي لكم القصائد، التي أفردتها كمال ناصر للتغني بالوحدة وللوحدة، عن عميق ارتباطه الوجداني بفكرة الوحدة العربية، وهي أبرز الخصائص الفكرية التي تتبلور حولها وبها شخصيته الأدبية والسياسية، فباستثناء قصيدة "من وحى الوحدة" والتي نظمها بمناسبة الوحدة المصرية السورية، لم يخص الموضوع بقصيدة كاملة، وإنما طغى شعوره القومي، وعاطفة العروبة القومية، خلال العديد من تجاربه الشعرية، خاصة خلال مراحلها الأدبية الأولى.

وقد يكون ذلك راجعا إلى تسيد الرعة الكلاسيكية على مجموع تجاربه الأدبية في هذه المراحل، مما لون نتاجه الشعري بروح الخطابة الجزلة، والتعلق التقليدي بالمناسبة، والانفعال الحماسي المتوهج الاندفاع بالحدث وبالموقف، فاللحظة الوجدانية في معظم قصائده تتزامن واللحظة التاريخية، وتتعايش الكلمة مع الفعل تعايشا لم يسمح لطاقة التأمل الأدبي من بناء رؤية شعرية مستقلة فنيا، بحقائقها، وأبعادها، ومفاهيمها، ودلالاتها، وإيماءاتها، عن الحقيقة الخارجية والتجربة العامة. واتسمت

قصائده بالوضوح، والمماحكات الذهنية المنفعلة، وهي خصائص تجعل من الصعوبة أيضا - تين رسوخ مشاعره القومية من التجلى العاطفى للإبداع الخيالى، وخصوبة التصوير الفنى للفكرة، والإشعاع الإيحائى المتعدد الدلالات للكلمة الشعرية كرمز وكدلالة عاطفية. فمصطلح الوحدة فى شعر كمال ناصر مصطلح سياسى، ذهنى لا عاطفى تقرىرى لا أدبى.

طلّاع الوحدة هذى فقل
تبارك الكبر بها والسماح
لمصرنا والشام منها جناح
وللعلى والمجد منها جناح
ترف آمالا على شعبنا
خفاقة تخطر فى كل سواح
تصمد للطغيان لا عاصف
يهزها ولا عتى الرياح
للنور فيها مشعل خالد
معرورق بالعز نشوان ضاح
(من وحى الوحدة)

على هذا المتوال ينطلق الخيال على سجيته دون أن يسمح للتأمل الفنى بالتدخل لبلورة التعبير والتصوير، فيرتجل التشبيه ارتجالا ويبنى صورته جانحا للبسطة الشديدة لا إلى الابتكار والتركيب.

لم يتبلور وجدان الوحدة في شعر كمال ناصر خلال رؤيته الفنية بمعزل عن حركة التاريخ الفلسطيني، وإنما انبعث من أعطاف هذه الحركة، ممتزجا بوجدان التحدى الوطنى، وكأحد المقومات الأساسية التي ترتبط جدليا بهذا الوجدان، فتطور بتطور حركة الكفاح، مصاحبا الحركة الثقافية والأدبية التي أنبتت على واقع النضال وظروف القضية.

ينهض الحس العاطفى بالوحدة العربية، في شعر كمال ناصر، على أكتاف قناعة موضوعية أساسا، فالعاطفة القومية ليست مجرد وجدان عنصرى أو نزعة عرقية، وإنما إيمان بحقيقة واقعية، فنظرته إلى وحدة البلاد العربية تتحقق في إطار مداركه لها كأمة، تتوافر لها كل المقومات الموضوعية للأمة: الأرض اللغة والتاريخ والمصالح الاقتصادية والأمانى الإنسانية والثقافة المشتركة، ففي الزمان العربى، والمكان العربى، يتحسس ذاته مشروطة بهذه الارتباطات الاجتماعية، وبموضع أنه كوجود طبيعى داخل هذا الوطن الواحد الرحب.

"أنا من هناك ومن هنا في كل عاصمة أنا
وطنى الكبير يحده قلبى على هدى الدين
وطنى الكبير يحده التاريخ دربا مؤمنا
أنا من هناك ولم أزل في بعث أمتنا هنا
علقت بين نجومها الشهباء أحتمل الضنا
ونحت في صحرائها وسهولها لى موطننا

في مصر، في بغداد في لبنان آمال لنا
لا ندعيها.. إنما أحلامها تجرى بنا

(أغنية جزائرية)

ولا أدل على موضوعية مشاعره القومية، وإنسانيتها، من أنه وهو
المسيحي الشديد الإيمان بالمسيحية، يثب فوق كل حس طائفي وديني
محدود النظرة، ويبرز الدين الإسلامي كأحد المقومات الجوهرية للوحدة
العربية، وربما يغالى في ذلك بعض المغالاة، فيعتبر الإسلام المقومة
الجوهرية للأمة العربية، والمنطلق التاريخي لها، فينطلق موجهها الخطاب
إلى الرسول في قصيدته "شاعر في العيد - ١٩٥١": "أنت شيدت
للعروبة صرحا... قدسيا موطن الأركان، وسنحيمه رغم أنف الليالي...
وسنمشى به إلى الحدثان، وحدة العرب لم ينم عنك يوما... عربي ينتمي
إلى عدنان".

وإذا كان كمال ناصر قد اقتنع بذاته القومية موضوعيا، فمن ناحية
أخرى يكشف عن الوشائج الروحية العميقة التي تربطه بالتاريخ العربي،
كتاريخ حى ويقظ، فهو ينتمي إلى الواقع العربي الراهن، مرتبطا
بخصائصه النفسية ومكوناته بالماضى العربي بثقافته وتصوراته وأفكاره،
والقراية التي تجمعها بالعربي المعاصر في سوريا ولبنان والعراق والسعودية
واليمن والجزائر....، تربطه بوشائج أقوى بالعربي الجاهلي والإسلامي
والأموي والعباسي...، أنه ذات موصولة بالواقع العربي الصامد بعروبته
على ساحة النضال تحت سماء الشرق:

يا خيال الصحراء يزكى خيالى
لا الأمانى ولا التشوق ينسى
أنا لى من هناك ذكرى انطلاق
من حنايا الماضى ومحراب قدسى
أنا لى من هناك شيطان شعرى
يتهادى ما بين جن وإنس
رقصت فيه للفصاحة أوتار
نمتها فى الفن أوتار قس
ولوادى العقيق عرس يتيم
أوقفتنى عليه أوهام عرسى
أين منى الكواعب السمر تلهو
بالصبا الحلو والشذا والدمقس
صور من رواسب الأمس تحيا
فى خيالى النامى وتضحى وتمسى
للعشايا على حداها ظلال
حالمات من عهد ليلى وقيس

العاطفة القومية عاطفة تحررية، فالفكرة القومية وليدة الصراع من أجل التحرر والاستقلال، ولا غرو أن تنبعث الفكرة القومية بكل جيشانها القوى فى صدر كمال ناصر فى فترة مبكرة، ثم تستمر فى النضوج واستكمال ملامحها، متدرجة من فكرة مطلقة ذات ملامح

مثالية إلى فكرة موضوعية وحقيقة واقعية، بتأثير معاشته للنضال الوطني والتمرس والدراية بحقيقة القوى المصطرعة داخليا وخارجيا، وليس بغريب أن يتبته السوريون قبل غيرهم إلى الفكرة القومية، وهم الذين تعرضوا أكثر من غيرهم للتفتت والتقسيم السياسي المصطنع في غضون وأعقاب الحرب الكونية الأولى، وليس بغريب، أن تتوجه أنظار أبناء سوريا الجنوبية - فلسطين - إلى هذه الفكرة ويتعشقونها، وقد تعرضوا دون غيرهم للحملة الإمبريالية التي استهدفت اقتلاعهم من جذورهم الوطنية والقومية. ومن الطبيعي أن ترتبط العاطفة القومية وتبلور في مواجهة الاستعمار والاستيطان الصهيوني، ومن خلال الحس الوطني المقاوم المتمسك بالأرض والعروبة.

ولقد نظر كمال ناصر دائما إلى الحدود السياسية، كحدود مصطنعة لا تتفق مع الواقع العربي الواحد، ولا تهيئ التماسك الكافي لخوض غمار النضال في سبيل التحرر العربي، "تلك الحدود التي شلت توتبنا... من صنع غدار بنا لعبا، وكل من يدعى فيها سيادته... يريد أن يسحق التاريخ والعربا".

بارتباط التجربة الشعرية، بحركة النضال الوطني، تتساقط عن شجرة الفكرة القومية أوراقها الذابلة المزيفة، كلما هبت العواصف وارتفعت أذيال الادعاء لتكشف عن دناءة العملاء، وتناقضهم مع الأمانى السياسية والقومية للشعوب العربية. لارتباط مصالحهم بالمصالح الإمبريالية، وعلى مراحل، وبالممارسة، اكتشف كمال ناصر حقيقة

القوى التي تقف في جانب الاستعمار، وبالممارسة أيضا أدرك موقفهم المعادى للقومية العربية وللوحدة العربية. ولكن إلى أي مدى استطاع أن يعبر جسر المثالية الضيق، ويبلور رؤيته للوحدة، حيث تتلاقى أمانى التحرر الوطني، بأهداف التحرر الاجتماعي، بأن يتسع مفهوم الثورة الوطنية ليشمل التأكيد على ان المرور للمستقبل العربي، لن يتم إلا بتصفية القوى الاجتماعية الضالعة بالمشاركة مع المخطط الاستعماري، أهدافه ومصالحه.

إذا كان كمال ناصر قد اكتشف خيانة الأنظمة والسلطة والزعامات، فمن التزيد القول إنه توصل إلى حقيقة التكوينات الطبقية التي تقف عقبة في سبيل التحرر، وفي سبيل الوحدة العربية، بل ووحدة القطر الواحد، فالاحتكاك الوجداني بالبناء الطبقي استغرق وقتا طويلا قبل أن يتنبه إلى قوى التحرر الحقيقية، وقوى الوحدة الفعلية، وعلى الرغم من أن عاطفة القومية انبعثت من إطار موضوعي، فإن المسألة الهامة لم تحسم دفعة واحدة في تجربته الشعرية بالنسبة للقوى التي بإمكانها تحويل الحلم القومي إلى واقع، وظل كمال ناصر في نظرته ومفاهيمه صدى لأيدولوجية حزب البعث التي لم تكتمل هي الأخرى وتتضح إلا بمرور الوقت.

وإذا كان بالإمكان الجزم بأنه قد أولى المسألة الوطنية باهتمامه، فمن المستحيل بقراءة شعره على الأقل - التوصل إلى الأبعاد التي ينتهي إليها وجدانه الاجتماعي، فمن موقع بعثي ينادى في قصيدة

"في الصحراء - والخليج العربي" (١٩٥١ - ١٩٥٢) بتأميم آبار
البترو، تسخيرا لإمكانيات الأمة العربية في معركة الاستقلال:

ذلك الأسود المطل من الأرض نداء الصحراء للانفجار
لو ملكنا زمامه لنسجنا
من شرايينه عقود الغار
ورفعنا إلى السماء لوانا
واقبحنا معاقل الفجار
أنه حقنا.. في ذمة الغدار
ما ضاع من غنى ونضار
أنه حقنا فقل للملايين استجدى
مسيرة بالشعار
وسنبى به الحصون ونمشى
بالملايين لذة للشار

إن فلسفة التأميم تتجه في القصيدة للدعوة للتحرر من الاستغلال
الإمبريالى للموارد المحلية، ومن الصعوبة أن نستشف علاقتها، بالعدالة
الاجتماعية، وهى إذ تشن هجوما على السلطة المتعاونة والمهادنة
للاستعمار وعلى انتهازياتها وتكالبها على المنافع الشخصية، إنما تنطلق
أيضا من حس المسئولية الوطنية:

يا خيال الصحراء ماذا دهسى
الحكم فقد خاب فيه ظنى وحدسى
فكان الرمال أسكرها المال
وطهر الثرى أصيب بمس
وجهت همة السلاطين في الدار
وطابت ما بين صم وخرس
طعنوا وثبة العروبة في الشرق
وخانوا التاريخ باسم الفلس

وإذا كان كمال ناصر قد هاجم الزعامات العربية بشراسة، حين
تحقق من القهر الوطنى الذى تمارسه السلطة على شعوبها، فمن
المستحيل تبين نظرتة إلى القهر الاجتماعى، ويتبدى فساد الحاكمين في
تجربته الشعرية أطماعا شخصية، وعيوبا خلقية، وتنافسا فرديا يتسابق
للسيطرة، ولا شك أن الرواسب المثالية التى تحكمت في وجدانه قد
وضعت اللجام حول انطلاقه الثورى، وألزمته بحدود لم يتجاوزها. هذه
الرواسب التى ظلت تلقى ظللا داكنة على أطراف تجاربه الشعرية:

دم الضحايا على أسوار قلعتنا
يجرى به في ثرى أوطاننا قدر
قدمات نورى ومازالت عصابته
طبيعة الأرض ألا ينتهى النور

ومن الطبيعي أن يضطرب عالم القصيدة ويتردى إلى الخلف خطوة، لانفصال فكرة السلطة عن الوضع الطبقي، هذا الاضطراب الذي ينعكس على التجربة الشعرية بتعليقها المفاصد على فكرة الشر المتأصلة في الكون، وطبيعة الأرض، وهو التفكير نفسه الذي يدفعه للتمسك بموقف أشد انحرافا " ما همنا أن بنينا صرح وحدتنا أقاده خالد أم قاده عمر" ومعميات التجربة الشعرية أكثر خطورة، والتناقضات الوجدانية والفكرية تزحف داخل عالم القصيدة ببرود حاملة معها تردده المؤسف بين القوى الاجتماعية المتنافرة "ليس يدرى التاريخ من ذا يجازى... من بنيه قايين أم هابيل - (١٩٦٥)".

ولابد لنا هنا أن نشير إلى أن التسه إلى التفاوت الاجتماعي، غير النظرة إلى معالجة هذا التفاوت، وتلمس التجربة الشعرية لكمال ناصر إنسانية مرهفة الحس الوضع الاجتماعي، وتنفعل ساخطة السخط كله على الفرص الغير متكافئة التي تمزق بشر المجتمع الواحد إلى أغنياء وفقراء. وينادى كمال ناصر من أحضان البعث بفكرة اشتراكية:

فكرنا واضح المعالم باق

والشعارات أمة لا تحول

قد نفحننا قومية العرب معنى

ساميا في رسالة لا تزول

في اشتراكية تحطم ظلما

تصرع البغى في الدنى وتزِيل

فخلقنا في الثورتين وجودا عالمنا ثالثا إلينا يؤول

(وسيقى البعث الأصيل الأصيل ١٩٦٥)

إلا أن قوى الكادحين لم تتحول إلى الثورة إلا بجهد، وقطعت التجربة الشعبية شوطا طويلا قبل أن تصل إلى الارتقاء بالشعب إلى مصاف الثورة. شوطا بدأه من "ما أحقر الشعب وما أجنبا" إلى يقين "تلك العطايا من جراح الشعب تغتفر الخطايا، والخلد أدري بالدم الغالي وأدري بالعطايا، الشعب أقوى والتفت وقد بدا حول سوايا.

فمن البداية، علق كمال ناصر أحلاما ليست بمحلها على مشجب الأنظمة العربية قبل النكبة، بمثالية صيبانية محدودة النظرة، ولم يلبث أن انثنى على نفسه، يلعق المرارة، ويجتر خيبة الأمل التي منى بها في الجامعة العربية، وفي الحكام العرب والملوك العرب، وتمزق خياله الوحدوى على صخرة التكوين الاقطاعى والعشائرى للزعامات العربية وغرامها الدنس بالشمطاء الإنجليزية والهيفاء الأمريكية، وتنفجر أجواء قصائده باستفهام مر يستقطب كل حيرته واستنكاره وغضبه:

ماذا فعلتم بالبلاد سوى القضاء على البلاد
يا عصبة الخير التي انتحرت على ثغر الجهاد
قوموا انظروا الشعب الفقير مشردا في كل واد
يشكو فلا تصغى له أذن ولا يؤويه ناد

أين العروبة ركبها الجبار ما بين العباد
فتشت عنها كل شبر في الوهاد وفي النجاد
فوجدتها كتلا تدب على النميمة والفساد
(إلى أقطاب الجامعة العربية)

ولغياب الوعي الطبقي، فسر كمال ناصر كما يتلاحظ مفاسد
الحكم بظواهر أخلاقية ونفسية مريضة، واستدار بحرص ناحية الرعايا
والجماهير، خارج السلطة، ويمثل هذا المنحى تحولا محدود القيمة، إذ لم
يتبين التكوين الطبقي للجماهير التي توالى صراخه بتنظيمها:

فيا وطني أن تبغ عزا ورفعة
تموج بأحلام تظللنا دهرا
فنظم صفوف الشعب نظم سبيله
على هدف واع وحرية حمرا
ندق بما باب الحياة عقيدة
ونلهب في أرجائها العقل والفكرا
على حلم للمجد في ظل راية
موحدة الآمال تستنهض الفخر
تضم شتات العرب بأسا وعزة
يعانق قطر في عروبتة قطرا

وما إن خاب أمل كمال في الأنظمة العربية حتى طرق أبواب
البعث، كحزب يلبي المطلب الوجدوى الذى يشعر به، بتنظيمه القومى
الذى يتمناه، ومحتواه الاجتماعى الذى يتوافق معه، كما أن البعث له
رصيد من الاعتزاز لديه لمناداته بالكفاح من أجل القضية الفلسطينية
منذ عام ١٩٤٦م.

" البعث للجميع كلنا فداه ...
نعيش في وجوده في مطلع الحياه ...
نقية، خالدة كالمجد في صباه ...
غدا نعود عبره لدارنا الجميله ...
فتضحك العطور والزهور ...
وتهزج الأسوار والنسور ...
وتضحك الخميلة ...

ومع الانتفاضات الثورية التي شهدتها المنطقة العربية، وصعود
البرجوازية الصغيرة وتصورها للحركة الوطنية العربية، بدأت مشاعر
كمال ناصر تفتح، وقد سحرها الأحداث، واسترد ثقته الضائعة في
الأنظمة العربية، وراودته الأحلام الوجدوية وقد تصورها وشيكة الوقوع،
فزغردت التجارب الشعرية مع الانتصارات القومية التي أنجزتها هذه
الثورات، في مصر بالذات، وازداد اقتناعا بعودة قرية، وبأن الفلسطينيين
لن يلبثوا أن يجمعوا خيامهم عائدين إلى أرضهم السليبة تحت رايات
الوحدة العربية الخفاقة، خلف فارس القومية المشوق القائمة، الذى أهل

بسحنته العربية من ظلام الجرح الفلسطيني، وتعلق وجدانيا بسحنة العملاق المصرى، عبد الناصر، الذى حقق لرؤيته الوطنية طموحها في المقاومة والاستبسال والاستقلال، ويصدق كمال ناصر لسياسة الحياد، والتأميم وصفقة الأسلحة، ورفض الأحلاف، وانتصارات بورسعيد.

ويخص كمال ناصر عبد الناصر بتقديره، ويبدو أن عبد الناصر حقق تصوره للزعيم وللزعامة وهو تصور صوفي الملامح إلى حدود بعيدة، للطبيعة المثالية التي اتسم بها تفكيره، والتي ضخمت من مكانة الفرد وأهميته في صنع التاريخ، واندرج في شخص عبدالناصر الإشكال القومى والوطنى، وانضوت القضية الفلسطينية كما انضوت الفكرة القومية في أعطافه، لقد كتب كمال ناصر أجمل قصائده خلال هذه المرحلة، ولعل قصيدته "إلى جمال" ملخص دقيق لطبيعة تصوراته في هذه الفترة.

إليك إليك مددت يميني

وبين يديك وضعت يدي

لأني نحت بعينك أمسى

وفي مقلتيك نحت غدى

فديتك في حالكات الخطوب

وغيرك في العمر لم أفتد

أرى فيك دنيا بلادى

تطل على حلم أوحد

وأنت بها قلبها العبقري
وفوق ثراها الغمام الندى
خفقت على رغبات بنيتها
خفوق بنينا إلى المقصد
كأن الجهاد استفاق عليك
لتحمل عن صدره المجهد
فتبني وتعقد نصرا أيما
على دربنا الشائر المرعد
وقبلك لم يزد النصر يوما
وفي شرقنا البكر لم يعقد
جمال واهتف باسمك جهرا
ولست اناديك يا سيدي
أجلك عن همسات العبيد
واختال باسمك للفرقد
وأصحو مع الفجر عند القنال
وملاء وجودي فؤاد صدى
يعب من المجد في لذة
وينحر من أمسه الأسود
سلاحك شعب بإيمانه
وطنت على حلم المعتدى
مشى للردى يستبيح الردى
وكان مع الفجر في موعده

جمال ولى في فلسطين حق
وحق شبابك لم أجد
هناك على الساحل العسجدى
لنا ملعب ظامىء المورد
وفيه لنا ألف معنى جريح
يكبر في قبة المسجد
وفيه انطلاق شبابى الفتى
ومقبرة وسعت مرقدى
أحن إليه لدى صلواتى
حين المسيح إلى المزود
وينشرنى الوهم في شاطئه
فأخلو مع الوهم في معبدي
أفتش عن أمسنا في رباه
لأصحو على واقع أسود
جمال نريد انطلاقا جديدا
ونصبو إلى عالم أجود
وأن ضل بعض الرفاق قليلا
فلا تضعفن ولا تحقد
غدوت وحيدا على الدرب
فاصمد سيخلو لك المجد أن تصمد

١٩٥٧/٦/٢

أشواق أجنحة الدماء لكي تطير
كفى ترفرف خلف قضبان وسور
وغرام عيني اللتين تغردان
للفجر أغنية السماء

(ديوان الأردن على الصليب)

كان البعث، هو التنظيم الوحدوى الذى يعمل داخل إطاره، كما كان عبد الناصر الفارس العربى الذى يعدو بجواد الانتصارات العربية. وبتحطم الوثنين، اهتدى كمال ناصر إلى الفجر الفلسطيني متأخرا، فلقد سبقته الشخصية الفلسطينية إلى الظهور بسنوات على المسرح السياسى.

أما البعث، فتداعى للانهيار أو بدا فى اعتقاده بعد وصوله إلى الحكم، ثم بفشل الوحدة المصرية السورية، وما صاحبها من خلافات فى صفوف الحزب... واكتوت مشاعر كمال ناصر بنار الأحداث، وعاش تمزقا نفسيا رهيبا، ممزقا بين عواطفه الوثيقة الارتباط بعبد الناصر، وبين ولائه للحزب، ضائعا بين الخلافات، واجتاحته مشاعر اليأس من البعث منذ هذه الوهلة إلى أن غادره ١٩٦٦.

"أتحبون أن أغرد للبعث وأشدو في عيده وأطيل ليس عندي
فقد سفحت شبابي بين جنبيه فاحتوانى الذبول شوهدت غربة
المقاييس روحى من ترانى وما عسانى أقول"

(١٩٦٥)

وأما عبد الناصر، فلقد سقط عن صهوة جواده، بنكسة ١٩٦٧، ثم بقبوله لقرار مجلس الأمن ٢٤٢، وأسدت مبادرة روجرز ستار النسيان على مشاعر التقدير العميقة التي كنها قلب كمال ناصر له، وما أسرع ما نبض مع البرجوازية الفلسطينية الصغيرة، التي حركت بدمائها الحركة الوطنية، مهللا للفارس الجديد الممتشق حسام الفداء، وواثبا من قهر الخيمة إلى ثورية البندقية.

"وسأروى لك قصة
قصة عاشت بأحلام الأنام
قصة تنبع من دنيا الخيام
حاكها الجوع ووشتها عشيات الظلام
في بلادى، وبلادى حفنة من لاجئين
كل عشرين لهم رطل طحين
ووعود بالفرج .. وهدايا وبقج
أفها قصة آلام الجماعة
صمدوا عشر سنين في مجاعة
ودموع وأنين
وشقاء وحنين
أفها قصة شعب ضللوه
ورموه في متاهات السنين
فتحدى وصمد
وتعمرى واتحد

ومضى يشعل ما بين الخيام
ثورة العودة في دنيا الظلام

إلى هنا، تنقطع التجربة الشعرية لكamal ناصر عن مواصلة عطائها الثورية، وتتسرب الطاقة الشعرية إلى روافد ذاتية، واستكمالاً لموضوع الفكرة القومية يمكن الرجوع إلى مجموع مقالاته في فلسطين الثورة، وبإيجاز شديد يمكن القول بأنه نظر دائماً إلى القضية الفلسطينية كقضية مجاهدة للاستعمار والاحتلال والاقْتلاع كقضية غزو للمصير العربي بأكمله، وتحد للحضارة العربية، وأنه لن يتم تحرير فلسطين إلا عبر الكفاح المسلح، وهو ما يتطلب التحرر الكامل للإرادة العربية، وبناء القوة الذاتية للأمة العربية كأساس ومنطلق لأي إرادة فعل، والتي تتم بتوحيد القوى الوطنية والتقدمية داخل كل قطر عربي، لينطلق من هناك بناء الجبهة القومية الشاملة. ويستبعد كمال ناصر الرجعية العربية من هذه الجبهة، ويشير إلى حق البرجوازية الوطنية في المشاركة في جبهة التحرير الوطنية على أن تحدد وهيئ الدور الذي يمكنها أن تقوم به في معرك المصير.

"المسيحي المنشق"

- مشكلة فن.

- محنة أخلاق.

• لم تبق الحياة في جانبي
• غير حقدى وغضبي وازدرائى
• مذ تعمدت بالعذاب صيبا
• ووعت مقلتى سطا الغرباء

.....
(ك.ن)

حول المفاهيم المسيحية، تنامت التجربة الشعرية لكامل ناصر، وتبلور تطوره الفني وبالتناقض مع هذه المفاهيم تطورت مواقفه الثورية.

كان كمال ناصر مسيحيا مخلصا، كما كان فلسطينيا أشد إخلاصا. ومن تضايف هذين العاملين، ومن اندماجهما بجرارة فائقة في نسيج تجربته الوجدانية، تحسس مزاجه الشمولى التناقض الأساسى بين قيم المحبة والتسامح المسيحية، وبين ما يتطلبه الواقع المر لا استرداد وطنه من قوة وعداء وبغضاء، وما الثورة الجائحة التي واجه بها كمال ناصر يسوعه الوديع الذى تقدم بقداسة إلهية للصليب فاديا العالم بدمائه، سوى تعبير عن إيمان لا يحد برسالة المسيح المسلم، وسوى تعبير عن مدى تغلغل العقيدة.. المسيحية بحنايا أعماقه، وارتباطه الوجدانى الوثيق بمبادئها، وإيمانه العميق برسالتها، هذا الإيمان القوى الذى فرض عليه فرضا أن يطرح ديانته على بساط المناقشة، وأن يغصب نفسه غصبا على قهر إيمانه متزودا في رحلة كفاحه بكلية الرؤية، ووحدة الموقف.

ولا شك أن لنشأة كمال ناصر أثرا لا ينكر في تدينه الفائق، فبالقرب من جده القس الإنجيلى نما، وقضى طفولته بين أحضانها، ومن

بين طيات ردائه الكهنوتى عرف طريقه إلى الكنيسة، وتعود التردد عليها بانتظام، ولم يتخل عن هذه العادة، ولا شك أيضا - أن أرض فلسطين المقدسة قد أكدت على حسه الدينى المرتفع، فما من نبى إلا وترك على جنباتها أثرا من آثاره. وقبسا من نوره لا يزال فيضه يعم أرجاءها، ويملاً صدور أبنائها.

مشكلة الفن:

الحضور الدينى في شعر كمال ناصر حضور مبكر، فمنذ محاولته الأولى مع القصيدة يتبين شدة تأثره بالمسيحية، كتراث فهل خياله من ينايحه صوره الشعرية، ففي قصيدة الغجرية الحسنة، وهى إحدى القصائد التي نظمها أثناء تلمذته بمدرسة (بيرزيت) غلاما في الثالثة عشرة من عمره، يتعانق حسه الدينى مع رومانسيته المرهفة في لوحة عاطفية بالغة الجاذبية:

قدماك عاريتان يا بنت الهوى

قدما المسيح الناصرى كذاك

طواف أرض سار ينتعل الثرى

وسبيله قد حف بالأشواك

فكلاكما عبست له أيامه

في غمرة أتراه كان أحاك

ربما كانت الأرض المشتركة التي سار عليها كل من المسيح والعجربة الحسنة، هي التي مكنت الخيال الشعري من دمج قطبي الصورة الأدبية ومزجها مزجا شديدا دونما عناء أو مشقة في إيجاد العلاقة الوجدانية الحميمة بين اللحظة المعاشة والموروث الديني، ذلك لأن مقارنة هاتين اللحظتين تكشف عن قوة الحضور المسيحي للتجربة الوجدانية، من البساطة المتناهية التي ينتقل فيها من الحاضر للماضي، ومن السهولة التي يرتدى بها وجدان اللحظة الشعرية ثوب المسيحية، (يلد لذكراتي أن تغنى... كما غنى العذارى للمسيح)، فبين الشطر الأول والشطر الثاني صلة بعيدة كل البعد، منقطعة كل الانقطاع، فأى صلة بين غناء الذكريات وبين غناء العذارى للمسيح، أن توثب الخيال الشعري فوق منعطفات العواطف والأحاسيس توثب يقظ، يجذب عالم القصيدة دائما حول محور شعوره الديني القوي.

ولا يمكن اعتبار الحضور المسيحي في هذه المرحلة قد مثل مشكلة ما على صعيد الفن أو الأخلاق، فعلى مستوى المشكلة الفنية لم يكن كمال ناصر قد تمياً لبلورة رؤية شعرية واضحة المعالم، محددة الأطر، كانت ممارسته للشعر اجتهادات شاعر مبتدىء لم يزل، مرتبطاً فنيا بقوالب التقليدية والاتباعية، وإن مزج بينها وبين الاتجاهات الإبداعية، وانساق مع عواطفه المراهقة الفتية، وهي عواطف أكدت على الخصيصتين الدينية والجنسية معا كما هو مألوف.

"والصليب الذي تدلى خشوعا

صلبته الأيام في فـديك

فدعيني أفدى الصليب بروحي

وأقيم الصلاة في ساعدك"

(أنت إنسان)

إن أهمية الحضور المسيحي بالنسبة لتطوره الفني، لم يتأت إلا فيما بعد، حين بدأت في النمو قناعاته الواقعية، وتولدت رغبته المكتملة في احتواء هذه القناعات، والتعبير عنها، وهنا تتضح أهمية تأثيره بالمفاهيم المسيحية، كمفاهيم رئيسية بنى عليها معطيات تجاربه الوجدانية، وأبعاد رؤيته الشعرية، من اتساق عالمه الفني وعقيدته الدينية، ويتبدى مدى تغلغل هذه العقيدة وتشعبها بأعماقه، إن عالم كمال ناصر هو عالم فلسطين، لقد طواه الطموح أن يكون الصوت المعبر عن آلام الوطن والشعب، وفلسطين كمال ناصر هي فلسطين الجريمة الكبرى التي ارتكبتها الأنظمة العربية الرجعية، والعناصر الفلسطينية الأشد تخلفا، والأعنى اجراما. وفلسطين الشاعر هي الخطيئة الأولى، التفاحة المحرمة التي مهدت لبزوغ الحياة، ومن اللحظة التي تكف فيها القصيدة عن مباشرة الواقع، يلج التأمل الفني إلى عالم الشعر مضمخا بعطر المسيحية، مشرقا بالتفاؤل بين غيوم الظلمات والخطايا، وتتداعى الرموز الشعرية متطورة ببساطة، مبتعدة عن الواقع وإن تأسست حوله وداخله، والحقائق الشعرية بدءا ليست حقائق واقعية وإنما حقائق معادلة للواقع، ومعبرة عنه ومحتوية إياه وفقا لمنظور خاص فريد ومتفرد في رؤيته للتاريخ.

وقصيدة (التفاحة المحرمة) من هذه القصائد التي يمكن اعتبارها مرحلة جديدة ومختلفة، ومنحى آخر في إعلاء صوت القضية. إنها محاولة لصنع الشعر من دم الواقع، بتناول جسد الأرض، ومن الشكل الشعري الذي حاول كمال ناصر تطويره للخروج عن العروض الخليلي، يتضح اهتمامه الشديد بتطوير أساليبه الفنية وتطويرها لاستيعاب ذاته في الوقت نفسه الذي تستوعب فيه التاريخ، لقد ارتقى الشاعر الفني إلى مصاف مشاغله العديدة، وأصبح البحث عن إطار قادر لتقديم رؤيته الوجدانية دافعا ملحا للتجريب، وللحاق بالشاعر العربي، وبمستوى تطور القصيدة العربية التي خطت خطوات واسعة في الابتعاد عن الشكل التقليدي، ومع هذا فالتفاحة المحرمة وأن كانت ضد التقليدية، ودليلا على الرغبة الفنية المعتملة بصدوره، فإنها لم تقطع الطريق لآخر الشوط، ولم تستطع أن تتجاوز أرض التقليدية لآفاق أدبية أرحب وأخصب، وظلت أسيرة العروض والقافية كما لم تستطع أن تستكمل البناء الرمزي أو أن تنميه ولم تلبث أن تسطحت وارتدت بلغتها التقريرية للواقع المباشر كما هو كائن بدلالته وإيماءاته وحقائقه:

تفاحتي كانت على دربي

تفيض بالنعمى وبالنور

وبالندى

تفاحتي دربي

تناثرت في ملعب الحب

أحبها الردى

فاغتالها الردى
ومات في أرجائها صحبى
تفاحتى دارى ومن قلبى
أطعمتها في حالك الخطب
لتخلدا

في ثورة الفدا
تفاحتى.. جريمتى، ذنبى
وملعبى المطعون في جنبى
مزقها العدا
تفاحتى شعبى تشردا
وكان لا بد أن يجلدا
ليفتدى، ويفتدى
ليولدا..

من السقوط للبعث، ومن الموت للقيام، ومن الخطيئة تبدأ الحياة،
وطريق الحياة هو طريق النضال والتضحية، والبطولة هي بطولة الفادى،
الذى يتقبل موته لنصرة الكل، فداء للجميع، خلاص المجتمع، والموت
ضريبة واجبة السداد، يدفعها الشهداء الآلهة، والشهادة طريق يسوع
الرب لخلاص البشرية، إن جدلية الفداء حقيقة سيكولوجية حية تمارسها
المسيحية منذ قيامها، (ضريبة الربيع، ضريبة البقاء، تدفعها الحياة في سخاء،
في موسم الشتاء، في رحلة البقاء والفناء) أن جدلية الفداء: الخطيئة -
الفادى - الحياة ناموس طبيعى خالد، يحكم الكل، ويلزم الجميع.

"من سار في درب العلى
لابد أن يموت
لابد أن يموت كل يوم
في موكب الإباء والشمم
لأننا في موتنا نستلهم الحياة
نُحقق الحياة
ونخلق الحياة في العدم
ضريبة الوجود أن نعلم الوجود
وأن نعلم الوجود
بنشوة الألم..

(رسالة شهيد)

أما صورة المخلص، فإن ملامحها تشبه إجمالاً ملامح الأنبياء، بل
وأغمض، فالزعيم أو الفادى كائن غريب لا يمت للأرض ولا ينبثق من
صفوف البشر، فلم تنجبه امرأة ورجل، وإنما يفد من السماء بصفة
إلهية، تعظفا على آلام الرعايا، ورحمة تنشر أجنحتها على أشقياء
الروح:

نُجمه كان في النجوم البعيدة
فهفت روحه لندنيا جديده
وظفرنا به وكننا إليه
مثلما يشتهى الثرى عنقوده

جذبتة آلامنا فاحتواها
جمرات على عذاب العقيد
فشربنا من خمرها وانطلقنا
كالأماني للثورة المنشودة

والرسالة التي يهبط بها هذا الفادي رسالة لا تتعلق بمأساة الناس الجياع العراة، أو بأوضاعهم الاجتماعية، أن كل ما يتبقى للثورة المنشودة رقعة تمتد من النفي (لم تكن ثورة الجياع ولا الظمأى ولا ثورة العراة الحقودة). وترك مجالا متسعا للاستفهام، أما صفة الحقودة التي تنعت ثورة العراة، فتضفى مسحة مسيحية إلى هذا الزعيم الغامض المنبت، كما أنها تموضع هذه الثورة فكريا وطبقيا، وعلاقة الزعيم بجماهيره علاقة تستمد أصولها من الأسطورة، فنجد الحب الذى يغدقه بسخاء على أشقياء الروح، وعلاقة التواكل والاتكال والانصياع من جانبهم، والتفاعل بين الزعيم والشعب تفاعل غامض وسحري، ففي بوتقة حب الجماهير لهذا الزعيم، تنصهر الرغبة في (قتله)، لاستعادته ودججه في المصير الأرضى والإنسانى، والقتل في التجربة الشعرية متمم لشخصية الزعيم المهيبه والمهابة، أن فعل القتل لازم لتحول الإله إلى قائد، الخالد إلى البشرى، المطلق إلى المحدود، ولا تتأكد زعامته إلا عن طريق الصلب، وبتدمير الألوهية يصبح قوة خارقة في صفوف شعبه، قوة تدفع إلى سبيل إرتقاء مبهم المسالك، غير واضح الأهداف، فجماهير كمال ناصر في هذه المرحلة ظامته إلى

شيء ما، مسحوفة داخل واقعها، تتطلع إلى من ينقذها من الوهدة التي تردت لقاوعها، وإذا كانت لم تتعرف بعد إلى نفسها، ولم تفتد إلى مواطن القوة، والثورة الكامنة في توحدتها، فإن ظمأها تعبير عن فقدان الإيمان في الزعامات والقيادات التي منيت بها، والتي أعمتها المصالح فجرفها التيار للمهادنة والخيانة والعمالة، كما أن الغربة التي تعانيتها باتجاه ذاتها، وعدم الثقة في إمكانياتها، وضياع كيانها تاريخيا يجذبها للتعلق بالفادى الغريب الوافد من النجوم، غير الطامع في مصلحة أو سيطرة، مأخوذة بمثاليته ومثله، وبواقع من شعورها بالحاجة إلى البشرى والواقعي تندفع لقتله، محاولة منها لتملكه وتذويبه في صفوفها، حيث لا تملك أجنحة الثقة اللازمة للتخليق والإرتقاء إلى مصاف ملكوته. أنها تعيش محنة نفسية قاسية، وتعاني من ألم جوع هائل لتاريخ حر ومجيد، فتزحف إلى عالم التجربة الوجدانية تحت ألوية الرومانتيكية والصور الدامية الموشاة بألوان الدراما المسيحية:

كم جلسنا حوله نتملى

روحه البكر فكرة وقصيده

وسكنا جراحه في يديه

فاستحالت طلائعا معقوده

فحملناه للنجوم فكادت

تدعيه تود أن تستعيده

فهى أحنى عليه منا وأولى

تتحفى به وتدرى خلوده

ربما.. ربما نكون قتلناه
لنذكي وجوده ونعيده
ربما.. ربما إذا ما انحرناه
فككنا إسهاره وقيوده
لم يكن طارنا على الجمد لكن
سرق الجمد عمره وجهوده
لم يكن طامعا ولا أعلقته
برؤى الحكم شهود عريده

(الفائز القائد)

لم تمهل حركة الواقع كمال ناصر للاستمرار في تخیلاته الوردية عن
الزعيم الفادي المخلص، لقد تجاوب كمال ناصر الشاعر وجدانيا مع
تطور الواقع، ولم يتخلف عن ركب التاريخ الصاعد بتوكيده على
الشخصية الفلسطينية، ودورها الطبيعي، ومعطيات التجربة الشعرية لم
تتنازل عن اللحاق بركب الثورة، ولم تسقط من عربة التاريخ على
قارعة التخلف، وتتطور صور الزعيم معزوفة على أوتار قيثار القضية
بالأنغام المسيحية ذاتها، وبالחס الديني نفسه، الذي استمر يمد التجربة
الشعرية بالرموز والدلالات والأخيلة، وأن كان كمال ناصر قد أخصبها
بالمضامين والمعطيات الواقعية، منسقا بين عناصر الشكل والمضمون في
وحدة القصيدة، ولا شك أن سمات الزعيم قد أتى عليها التغير نفسه

الذى أتى على شكل الكفاح الفلسطيني وقياداته الاقطاعية والبرجوازية،
وهي قيادات تاريخيا انفصلت عن القاعدة الجماهيرية، وعن أمانها، كما
سلف، ولا نبالغ في القول: بأن رؤية كمال ناصر جاهدت طويلا
للتخلص من قبضة التصورات الطبقية هذه حول مسالك النضال، وهي
التصورات التي تلبدت بغيومها آفاق قصائده وخاصة فيما يتعلق بالعلاقة
بالجماهير ودورها الكفاحي، لقد أكد كمال ناصر على دور الفرد
وأهميته المطلقة في صنع التاريخ، وتعظيم الدور البطولى قاطعا الروابط
الوثيقة التي تخضع هذا الدور للحياة الواقعية:

ثائرا يفرض المحبة في الناس
ويدعو للخير والتهذيب
لا يبالي بالشوك يدمى خطاه
في مجال الكفاح والترغيب
صمدت نفسه الأبية للآثام
في هيكل الوجود الرهيب
لا يبالي أصغى له الشعب لما
أن دعاه أم هام غير مجيب
حسبه أن يفيض بالأمل العذب
ويجى في الناس ميت القلوب
(صرخة الميلاد)

وبالتفاعل مع الأحداث ووعي التاريخ، بدأت أوثان الفكر والتصورات البرجوازية تتحطم، وأسلمت حركة الواقع خطاه إلى بداية الطريق للحقيقة، وإن لم يقطعه للنهاية، لقد اتجه عالم الشعر صوب الاتجاه الصحيح، وسقطت أوهام البطولة الفردية الخارقة، وتحطم الارستقراطي، واجتاح الإنسان العادى بجيوشه مملكة الأدب، واستحوذت بطولاته على مدائن الإبداع، وأكدت الرؤية الفلسطينية في شعر كمال ناصر على الفدائي البطل المنحدر من سلالة شعبية وصلب كادح، مخترقا الحواجز الميتافيزيقية التي قبرته في التاريخ، واحتجزته عن القصيدة، إلى هذا البطل الفدائي بدأت رؤية كمال ناصر تتجه (إلى الذين برعموا في مقلة الجراح، وأورقوا على رؤى النضال والكفاح، وصلبوا مصيرهم في خاطر السلاح، واستشهدوا ليولدوا في ثورة الصباح). بتطور مضمون القصيدة لم يتطور البناء الرمزي بنفس الدرجة، ولم يتخلص من دراما المسيحية، فالبطل الجديد يرتدى حلة البطل المخلوع الموشاة بمجدلية الفداء، ولم تستطع الرؤية الوجدانية بحقائقها الجديدة اقتلاع جذورها من الحس الديني، وبالرغم من إصرار الخيال الشعري على استيعاب النصرانية واستنبات صورته من ألوانها، فلقد استطاع بالتخلق حول محاورها أن يتخطى الحياة الفعلية وجدران التعامل المباشر مع الأحداث إلى حيوية العوالم الفنية إلى حد بعيد، وأن يصوغ من لبنات الحضور المسيحي لوحة جديدة عن البطل المعاصر:

آلامنا والشعب يحملها
عذراء تنزف في سما الخطب
نبضت بدنيا الغدر دامية
تحدو بنا في موكب العرب
هذى طلائعها مجنحة
تختال كالإيمان في الدرب
وتموج بالتاريخ تدفعه
فيهم من ركب إلى ركب
النور فوق جبينه حلم
أرقت عليه دسائس الغرب
يا سارق الأحلام في بلدى
آمنت بعد الله بالشعب

(إيمان)

محنة أخلاق:

من لحظة بروز الشخصية الفلسطينية على ساحة الواقع السياسى والكفاحى، بدأ المسيح المستريح بأعماق كمال ناصر يتململ، وقلقل الزلزال كثيرا من القيم المسترخية تحت شمس التوافق النفسى، ودهم شتاء عاصف القناعات العقائدية مقتلعا كثيرا من مفاهيمه الوجدانية مبشرا بربيع أخلاقى جديد.

فلم يعد ممكنا بيزوغ القدائي الفلسطيني على أرض الواقع والأدب الاستنامة إلى أخلاق الخبة المسيحية، وأصبح من المستحيل مجارة المتغيرات النضالية والاحتفاظ في الوقت نفسه بأدى درجة من درجات التوافق مع النفس، وبين الواقع السياسي والاجتماعي والواقع النفسى توتر كمال ناصر مدفوعا مع التيار الصاعد إلى آفاق المستقبل منجذبا بواقعه النفسى لتتخلف عن اللحاق بهذا التيار.

ولم يكن من خيار آخر أمامه، إدارة الظهر للحركة التقدمية ورفضها من موقع دينى متمت، أو المجاهدة لإعادة تركيب بنائه الأخلاقي بطريقة ما وفق المتغيرات الجديدة على ساحة النضال.

لقد استطاع مسيح كمال ناصر أن يعيش بأمان وأن ينعم بالهدوء خلال المراحل السابقة من عمر القضية الفلسطينية، ففي السنوات الأولى وحتى النكبة لم تكن قامة المسيح تزيد عن قامة كمال ناصر بطبيعة الحال، فكان مسيحا صبيانيا أرق صليبه على فخامة النهود الشهية دون معاناة حقيقية للآلام المتوالية على مسرح التراجيديا الفلسطينية، ولم تظهر في الفصول الأولى أدنى حاجة نفسية للتعرض لموقف هذا المسيح الآمن في حواره الصامت، وحملت سنوات النكبة وحتى الستينيات نذر الخطر التي تعرض لها استقراره المطمئن فيما بعد، إلا أن هذه النذر بهباتها الخفيفة ما كانت لتزعجه من مكمنه الحصين، فجميع المسائل تجرى بالتنسيق - على شيء من التعسف أو المغالاة - مع الواقع المرحلى للقضية وللموقف الفلسطيني، ولقد سبق مسيح كمال ناصر للصلب أكثر من مرة على أيدي (بيلاطس)

الجديد، الذى أتقنت تمثيل دوره إتقاناً فائقاً الزعامات الفلسطينية الرجعية بأصولها الطبقية الممالئة للرأسمالية العالمية، كما شاركها هذا الدور الأنظمة العربية العميلة، وعلى الرغم من تنبه كمال ناصر لهذه الأخطار، بل واعتقاله شخصياً بمعتقل باير الصحراوى بأوامر الملك عبد الله، إلا أن مسيح كمال ناصر لم يتزود بالأيدولوجية الثورية والتي بإمكانها أن تضع أنامله على مواطن الداء، وترشد قدميه العاريتين لطريق الصواب، وظلت آماله متعلقة بالأنظمة العربية نفسها، والتي لم تكف عن التواطؤ على سلامته بالاتفاقيات السرية والمعلنة مع يهوذا العصرى الصهيونى والأمريكى. لم يتعظ مسيح كمال ناصر من التاريخ الاتعاظ الكفيل بترشيده، وبلوغه سنوات الرشد، ولم تترعه استراتيجية العمل من داخل الأنظمة العربية خارج إطار رؤيته المقتننة بمشاعر الحجة والسلام، بل إن أفكاره الوجودية كانت أقرب لتدعيم عاطفياته المسالمة والتوحد مع مشاعره الدينية، في الوقت الذى لم يرغب عن بصره لحظة ما يجرى على المسرح وما يعد داخل الكواليس، وتنساق هذه المتناقضات بهدوء غريب لعالم القصيدة، وتمتزج الأصوات المتنافرة في نغمة واحدة:

يا رؤى الخير حاذرى أن تغيبى

واصمدى للأذى بدنيا الذنوب

إن للحب دمعة ما توانت

تتهاوى بالظهر فوق الصليب

سكبتها جراح عيسى فسالت

بضياء الغفران بين القلوب

يتعرض مسيح كمال ناصر لأول بادرة للثورة في قصيدة (لست منى يا غريب فاحمل صليبك)، ولكنه يعرف كيف يطأطي هامته للريح لتمر، ولقد تم استدعاء المسيح على وجه السرعة لفض التناقض الصعب الذى واجهه، والذى لم يكن من الهين إغضاء الطرف عنه، أو التقليل من شأنه، وهنا لابد أن نعترف لمسيح كمال ناصر بالذكاء، لما أبداه من بساطة متناهية في حل معضلة القصيدة لصالحه، مستمرنا استقراره النفسى، متمسكا بقيمه.

وقد لا يكون من الصواب مقارنة عالم كمال ناصر بعالم شاعر آخر كبرهان الدين العبوشى، لسان حال جمعية الشبان المسلمين (١٩٣٦)، ففلسطين العبوشى فلسطين صليبية، أما المواجهة بين فلسطين وبين الغرب في عالم كمال ناصر، فهي مواجهة لغزوة امبريالية استيطانية، ومن الوهلة الأولى يكتشف كمال ناصر طبيعة الحركة العدوانية، ومخططها الشرس للاحتلال والاستيطان، ومراميها الاستعمارية، والعلاقة القائمة بين الصهيونية والإمبريالية العالمية، ومن حدود إدراكه لهذه الطبيعة، ووعيه بالأحداث، ومعاناة شعبه، من جراء تنفيذ المخطط الاستعمارى يقتحم أمنه المسيحى التناقض الأول بين طبيعة البلاد الغربية الاستعمارية، وبين كونها بلادا مسيحية، إن عدم توافق الغرب الاستعمارى مع أبسط المبادئ الإنسانية للديانة المسيحية يعتبر الشرخ الأول لتصوراته، فيناشد المسيح أن يجد تعليلا له (أنت إن كنت سيدى ومسيحى.. فأنبذ الغرب وانتصر للجريح)، إن فكرة الشر من الأفكار

القريبة إلى الذهن، وفكرة بالإمكان تقبلها في الحياة الإنسانية، إلا إذا صدرت عن المسيحية، فإنها هنا تثير الدهشة والاستغراب، والمسيح نفسه تعرض للشر البشري (أنت بكر العذاب عند اليهود) وتقبله بمزيد من الإيمان والصفح، ولم تملل وحدة أمنه الحراب اليهودية المغمودة في جنباته، ورياح الشر التي أصبحت تهب على المنطقة، بدأت تخوخه من الداخل، وتفرغه من المبادئ التي نادى بها، واستبسل في التبشير والدعوة لها، ولم يكن هينا عليه الصمت الغافر الصافح، فلقد (روعته شريعة للنصارى.. مسخوها فأضحت استعمارا) ويصمد مسيح كمال ناصر في هذه المرحلة وأن اهتزت قناعاته، ويرفض الغرب بمنطق ديني، بمنطق المسيحية، وينقذ رؤية الشاعر من التناقض الأول إلى حين..

لست منى يا غرب فاحمل صليبك

راعفا بالدماء واتبع ربيك

لست منى فانزع شعار صلاتي

حسبي العمر قد حملت ذنوبك

لست منى يا غرب أن إلهي

رحمة عن دسائس الشر ناه

لا تباه على الأذى لا تباهي

فضحايا الإجرام بيض الجباه

إن مهدي في الشرق إن ضريحي

لم يزل قائما بهذى السفوح

كرمته للعرب بيض الأيادي
وحمته من صولة المستيحي
ذلك الشرق حبه في فؤادي
ووفائي يظل رهن بلادي
ودمائي على يد الجلاد
سوف تبقى على الزمان تنادي
خطموا دولة الأسى واليهود
(لست منى يا غرب فاحمل صليبك)

لم يخلد الإيمان إلى الاستقرار، وتجاذبت كمال ناصر التناقضات، فدأوى جراحه، وعالج التصدعات في بنيانه الأخلاقي المتداعى للأنهار باقتدار و صمود صعب، محاولا الاحتفاظ بإنسانية لا يمكن الاحتفاظ بها في حدود الطاقة الإنسانية المسئولة، وتوالت الأحداث وتصاعدت دافعة به للتملص من إهاب المسيحية، ليطلق قوى الأحقاد المكبوتة والبغضاء الحبيسة، ولم تمهله المعاناة ليهدأ ويمسح عن قلبه قذى الشر، وامتدت التصدعات في جدران قيمه المكيئة البناء، واحتدم الصراع رهيبا، وانتقل إلى مرحلة التمرد على نفسه وعلى مبادئه الأخلاقية، ورفض هذه المبادئ تحسبا لعدم تناسبها مع الواقع المؤسف المعاش، كان الستار يؤذن بالانسداد على هذه المرحلة، وكمال ناصر متمرد يتردد في الانسياق مع نفسه إلى النهاية، وازدوج عالمه الوجداني، منساقا مع قيم القوة والعداء، متمسكا على غير اقتناع بأخلاق الطيبة والصفح والغفران.

وشخصية المسيح في نهاية هذه المرحلة الفنية تتضاءل وتتأول، وتضعف وتشتد، إلا أنها في جميع الأحوال أقصر قامة من صوت فلسطين الجريجة، التي بدأت تعلق جراحها وتصحو مستأسدة، والمسيح الذي تقدم إليه كمال ناصر في (لست منى يا غرب فاحمل صليبك) في موقع قوة، يتقدم إليه هذه المرة في موطنه الضعيف. إن لهجة التوسل التي ناجاه بها (أنت أن كنت سيدى ومسيحى) تتحول إلى أسلوب أمر (عيسى بن مريم قد عرفتك هادئاً.. فاغضب ولو في ليلة الميلاد)، لقد تحول إلى شخصية مغلوبة على أمرها، لا تصلح بضاعته للتداول في عالم لم يصبح به شيء مقدس، حتى كرامة الإنسان وأمنه، إن حالة القدسية المضيئة تخفت أنوارها، ويزوى يسوع الرب طى النسيان، ولا تستعيده في قصيدة (عيسى بن مريم) غير نبضة وحيدة من الرهبة، نبضة من إيمان أفلت شمس غاربة في بحر الصراع البربرى.

يا أين.. أين فمى الذى أوقفته

لحنا على التسبيح والإنشاد

ما لى تمزقت المعانى حرة

وتحطمت في خاطر الأعواد

ما للرؤى العمياء تجرح مقلتى

تنتابنى في صحوتى ورقادى

تجرى دما في مهجتى وتعيش في

روحي وتسرى عنوة لفؤادى

فتموت أغنية المسيح على فمى
ألما ويجرس كل طير شادى
وتلوح لى هذى الدنى أسطورة
للبؤس قزم غمرة الأعياد
فأرى بها شعى الجريح مشردا
فوق الشعاب يلج فى الأصفاد
يا ليلة الميلاد قولى للذى
أنزلته للوعظ والإرشاد
هذى دماؤك لم تنزل مسفوحة
فوق الصليب تصيح بالجلاد
أكليلك الفخم الجميل تناثرت
أشواكه فى أمتى وبلادى
فحنا عليه المؤمنون وقبلت
آماله آمال بيت الضاد
وسعى إليه الغاصبون فشيّدوا
صرحا على الآلام والأكباد
والإنكليز بنوك ذلت أمة
قامت على الطغيان والأحقاد
والإنكليز بنوك كل ذميمة
منهم وكل أذى وكل فساد

فاسمع جراح المهد تهتف نقمة
وا ضيعة الأولاد والأحفاد
عيسى بن مريم قد عرفتك هادنا
فاغضب ولو في ليلة الميلاد
وأشهد مآسى الغرب كل جريمة
قامت هنا باسم المسيح الفادى
إن كنت منهم يا ابن مريم فلتعد
لربوعهم لا كنت فينا الهادى
أما المحبة فلتحول غضبة
هو جاء تذكى الحقد فى الأغماد
أما الحنان فسوف نمشى باسمه
ثأرا لتعلوا راية الأجماد
يا صائد الأسماك قد أودت بنا
بين الأنام شريعة الصياد

(عيسى بن مريم)

لم يستمر تردد كمال ناصر طويلا فى حسم مشكلته الخاصة مع الأخلاق المسيحية. ولم تلبث المتغيرات الواقعية على ساحة القضية الفلسطينية أن دفعته ليضع حدا باترا لتذبذبه الأخلاقى، تحت ضغوط من تشوفاته الوجدانية للتوحد مع الموقف، ففي نهاية المطاف يحمل كمال ناصر أخلاق المواسة ليضعها خارج إطار تجربته الشعرية بدون أسف عميق،

ويللمم مسيحه مشاعره الإنسانية الرقيقة ونبله النفسى تاركا شعب
المخيمات يتأهب للنضال المسلح، مؤكدا على شخصيته الفلسطينية نابذا
توهمات السابقة، متعرفا على البندقية في الآن نفسه.

ولم يعد بمقدور كمال ناصر - كما استطاع من قبل - لى ذراع
الواقع ليخضعه لقبضة الأخلاق، فمثل هذه الاتجاهات المثالية لم يعد
يامكانها رأب الصدع البين بين مقتنعاته بالنضال المسلح كطريق وحيد
لتحرير فلسطين ولاستعادة الوطن السليب، وبين مكوناته الأخلاقية
المتمكنة من عواطفه، لقد تجارب كمال ناصر مع رؤيا البرجوازية
الصغيرة التي أكدت على العمل الفدائى، وشجب تجاوبه السياسى
عقيدته الدينية، وانتزعه انتزاعا من برائتها، لينفتح على تيار الواقع،
ويلتحم بحركة التاريخ.

تنخبطى (أنشودة الحقد) حدود التوافق النفسى، وتكشف بجرأة عن
التناقضات الأخلاقية الحادة التي يعانى منها مر المعاناة، وتفد هذه
التناقضات إلى عالم القصيدة محمولة على أصوات ثلاثة تمثل أطراف
الصراع الضارى الدائر بين نسر وبلبل وشاعر، قيم الثورة وقيم الطيبة
والمسألة، والوعى المهموم بعملية الاختيار الصعب.

ومن البديهى أن الصوت الأعلى قوة في الإقناع، هو صوت القوة
والعداء والاستبسال، صوت النسر، (إنما الكون قوة وانطلاق وكبرياء،
إنما الحب نزع حاكها الجبن والولاء، أسعد الناس حاقد يطعم الثأر ما
يشاء). أما صوت البلبل فلا يرقى لمصاف الإقناع، كما أن حججه أقل

تماسكا وعقلانية، فلا تعدو المناشدة العاطفية اللائمة العاتبة، (كيف تنسى سر القداسة في الكون وتنسى شريعة الغفران، إن معنى الوجود صفح تمادى في حنايا الإنجيل والقرآن).

ولما كانت بواعث الإدراك الاجتماعية، فإن صوت الشاعر يفد كمأساة اجتماعية، ترتب عليها مشكلة أخلاق فردية، خاصة بالشاعر، وبتفهمه الأخلاقي عن متطلبات اللحظة الراهنة، (أنا جيل مضيع مزقتني شهوة الغدر واستباححت دمائي، أنا جيل مضيع وجهاد طعنته الأقدار في أحشائي، أنا دار وجنة ورياض مطرقات بالذل والإغضاء، ما على الحقد لو تسمر في روحى ولبي ضغائني واشتهائي).

فالبواعث الحقيقة للتجربة الشعرية تنفجر من أرض الواقع، بزرعة اجتماعية مرتفعة، توجه عالم القصيدة من مطلعها ياسناد فعل أمر ليس من طبيعة مسيحية إلى الجموع الثائرة: (احقدى يا جموع) فعلى أعتاب المقاومة تبدأ القيم الجديدة بالتخلق (ليمت في القلوب، كل معنى نبيل، نحن جيل غضوب لم يهن للدخيل). لقد نمت خبرات كمال ناصر في عالم غير إنساني، وتحطمت بالتجريب معتقداته وقيمه النبيلة (لم تبق الحياة في جانبي.. غير حقدى وغضبي وازدرائي، منذ تعمدت بالعذاب صيبا.. ووعت مقلتي خطى الغرباء)، ومن واقع الخبرة المؤلمة بمراحل القضية الفلسطينية تشكلت قناعاته الجديدة بصفة مؤكدة: (يا نبى الغفران لا الصفح يجدى في مجال العلى ولا الحب يجدى) لقد رفض قيم الطيبة من موقع ثورى قريب من مرحلة النضال المسلح، ومتعلق بها، أنه

انتشال للنفس من وهدة السقوط، وبحث عن دين جديد يسمو بالذات
إلى مستوى الواقع، ويوحدها بالصفوف، ويضفي عليها التوافق
والانسجام.

قد جبناك بالضغينة والحقد

فعلق بجانحك السلاحا.

إن إيمانك الصليب شظايا

فجرت في الفقى المريض صلاحا.

ربما.. ربما يناصرك الحقد

فتمضى الرماح تلقى الرماحا.

يا نبي الآلام في ثورة الحقد

خلقنا إليك دينا مباحا.

من شرايينه يسيل دم الشار

ويترو عواصفا ورياحا.

لا سلام وإنما خطوات

في طريق العلى قمز الصفاحا.

لا سلام ولا حنان ذليل

يتمنى الماضى ويهفو نواحا.

لا سلام وخنجر الشر يدمى

مواطننا راعش الذرا مستباحا

(أنشودة الحقد)

لقد رفض كمال ناصر الأخلاق المسيحية من موقع أكثر تقدما، ولكن من المغالاة الادعاء بأنه انصرف عن الموروث الديني، أو أن لغته كفت عن الاتصال به، وعلى الرغم من التطور العظيم الذى مس جوهر وطبيعة رؤيته الوجدانية بجنوحها للواقعي، فإن محنة الأخلاق المسيحية التي عانت منها التجربة أيما معاناة، ترجع في الحقيقة إلى موقفه الفكرى من مفهوم العنف الثورى، فلقد أوقعه تصوره للصورة كقوة شر تنبعث من احتدام الأحقاد الخبيثة والشهوات الدنيئة والمستويات البشرية المتدنية، في أحابيل التناقض المرير مع عقيدته الدينية، ولقد كان بحاجة ماسة لنظرية ثورية تقدمية، تؤصل العنف الثورى كما هو في الحقيقة إنسانيا ومطلبا خيرا مشروعا لإرادة الحق المتعطشة للعدالة وللحرية، لتعيد الانسجام بينه وبين قيم الطيبة والأخلاق المسيحية، وتنتشله من وهدة التمزق النفسى والانشقاق الروحى التي تردى لقاءها عالمه الوجدانى.

" غربة الملتزم "

- سنوات الإحباط.
- مسألة الارتباطات.
- الفلسفة التائمه
- ..والفردوس المفقود.
- تناقضات كونية.

- لو تستجيب الأرض ثانية.
" يخضر في عمري لها نبتة "

(كـن)

يتمركز الخط الشعوري للتجربة الوجدانية لكamal ناصر - في سنواته الأخيرة - حول الذات، ويتقلص اهتمام التأمل بالعالم الخارجي، مرتداً بجدة لدخيلة متشككة في جدوى الحياة الإنسانية، أما مصطلحات الغربة التي تداولتها تجارب المراحل السابقة، كمقولة مباشرة للواقع الفلسطيني السياسي، وكتعبير عن تشرد الفلسطيني المنبوذ الضائع في بلاد المنفى لاجئاً، وكصدى للحس الجمعي وللرعة الاجتماعية التي استغرقت موضوع القصيدة الفلسطينية بمعابنتها الشعورية لجزريات الأحداث اليومية المستقلة في وجودها عن وجود الشاعر كذات، فلقد تحولت إلى مصطلحات وجودية تعكس طغيان الحس الذاتي وارتفاعه، واهتمامه بالمصير الفردي وسيطرته التامة على أبعاد التأمل الوجداني، وموضوع التناول الفني، وما تثيره هذه التجارب أقرب إلى أن يسمى بمشاكل عدم الانتماء.

وهنا تتضح صعوبة التسليم بهذه الأحكام، دون الكثير من التساؤلات، فلقد أثبت كمال ناصر إلى تاريخ استشهاده انتماءه كاملاً لحركة المقاومة الفلسطينية، وإلى التيار الاجتماعي النشط، الذي لم

يتصل من قضيته، ولم يركن لهدوء، ولم يرضخ لاعتبارات الأمر الواقع بل إن استشهاد كمال ناصر في حد ذاته دليل لا يقبل الدحض على ما جره عليه موقفه الشريف كمناضل في سبيل قضايا بلده، هذا الموقف الذى ازداد نضجا على مر الأيام، كما ازداد ثورية وأهمية.

وهكذا نجد أنفسنا أمام مشكلة ذات شقين متناقضين، يمثل كل منها وجهها لكمال ناصر متباينا أشد التباين، وقد تنبه كمال ناصر لهذا الانقسام، وعانى منه فرعا متألما:

اللجنة التي أدركتها تخيفنى ترهبنى.
وأنى أقسمت... وانقسمت والتويت.
وأقلع الصباح في بحيرة الراح يمتصنى يعبنى.
وأمست الرياح لا تـاوىء الرياح.
وانظفـفـأ المصباح.
لم يبق فيه زيت، لم يبق فيه زيت.
مـاذا أنا جنيت .
رباه ما جنيت .
مستنقى يغرق بى يشربنى وقبضتى تضربنى.
أود أن أكون مثلما أتيت .. كما أتيت .
(رسالة من دوفيل).

ولكن لنحدد أولا أن المرحلة الفنية الأخيرة ما هي إلا حلقة واحدة من تاريخ تطوره الفني، ومن غير المعقول أن تكون هذه الحلقة منفصلة

عن غيرها من الحلقات، كما أنه من غير المعقول أيضا ألا تتصل اتصالا وثيقا بالمناخ العام الشخصى والسياسى، وبموقفه من حركة الواقع الفلسطيني وإفرازاته الشعورية، إذا كنا بصدد توثيق مشاعر كمال ناصر والوقوف على خباياها وخفاياها.. فالذات المبدعة لا تعيش منفصلة عن الواقع لتقتات بنفسها. والعمل الإبداعى الخلاق عمل سريع التأثير سريع الاستجابة في طرح وجدان اللحظة العامة، من خلال تكشفها في مرآة الآنية الخاصة، عن طريق استجلاء خفايا الحادث لا في تشيئه خارج الذات وإنما - أيضا - في تخلقه داخل الذات كتيارات نفسية وانطباعات فردية شديدة الخصوصية موازية لسيل الأحداث الخارجية، والتأمل الفنى في هذه الحالة يتخذ من الذات موضوعا لاستقطاب الواقع كمشكلة ذاتية يجمع خيوطها بأمانة ويعرضها بصدق....

كما أن هذه المرحلة كظاهرة أدبية ملفتة للنظر ليست منعزلة عن التاريخ الأدبى للقصيدة العربية واتجاهاتها.

إلى جانب أن معطيات التجارب الشعرية معطيات متحركة متطورة بالرغم مما يذهب إليه البعض بأن الرؤية الشعرية رؤية متكاملة ذات أطر ثابتة ومصطلحات ذات دلالات وإيحاءات خاصة. فهذه الرؤية إذا صدق تناولها خلال مرحلة معينة من حياة الشاعر أو من خلال ديوان أو عمل فنى معين... فمن الإخلال بالصدق تعميم هذه الرؤية دون مراعاة عوامل التغير التي تلحق بالشاعر كذات واعية، لا تكف عن المعرفة واستكشاف

آفاق أرحب ومناطق مجهولة لحقائق جديدة، مما يعمس بصفة دائمة
ومستمرة جوهر تصوراته الكونية والاجتماعية.

ولم تكن ظاهرة التشاؤم أو ظاهرة الحزن في الشعر العربي المعاصر
قاصرة على كمال ناصر خلال هذه الفترة، فهي في الحقيقة ظاهرة
وجدت صدى واسعا واستجابة عريضة من كثيرين من شعراء العربية في
غضون الأعوام من ١٩٦٤ إلى مرحلة ما بعد النكسة، وهي مرحلة
تركت بصمتها على الحياة الأدبية لأسباب عديدة، ويرر صلاح عبد
الصبور ذلك بأن الشعراء والفنران هم أول من يستشعر الخطر المحيق
بالسفيننة. وينبه إليه.

ولنسلم بأن القصيدة العربية تحت ظروف موضوعية خاصة بالواقع
العربي قد طرحت تساؤلا عن المصير الإنساني، وألحت على هذا
السؤال، وترجمته بالمصطلح الوجودى متأثرة إلى مدى بعيد بالثقافة
الغربية.

ولكن، يبدو أن هذه الحقائق على أهميتها ليست التبرير الوحيد الذى
يإمكانه أن يلقى الضوء الكافى على تجارب الغربية في شعر كمال ناصر
لتعامله مع واقع، مختلف نوعيا إلى حد ما عن واقع الشاعر العربي،
فالقضية الفلسطينية بالنسبة له كشاعر فلسطيني قضية متجددة الحيوية
على كل المستويات المحيطة به سياسيا واجتماعيا وحياتيا. وإن كانت في
الوقت نفسه من المشاكل الرئيسية والقضايا التي تشغل الشعراء كافة
على الساحة العربية، إلا أن إلحاحها على الشاعر العربي ليس بمدة المعاناة

نفسها التي يستشعرها الفلسطيني الطريد، الضائع فوق الكرة الأرضية بلا مأوى. ومن المنطقي إذن أن تفرض التزاما قاسيا على الشاعر لا تلزم بقسوته أي من شعراء العربية ويمس هذا الالتزام القصيدة شكلا ومضمونا، فلا مصوغ إذن للتعلل بالصياغة الفنية والشكل الفني. وهكذا نجد أنفسنا من جديد نجد في البحث حول تفسير تجربة الغربية كتجربة تأمل للذات في علاقتها مع الوجود كمعطى أولى لشاعر في قمة الانتماء والالتزام.

إن معاناة كمال ناصر النفسية، هي بلا شك معاناة تنبعث من المعاناة العامة وفقا لقناعاته الأساسية كفلسطيني أولا، وكثوري ثانيا، وهي الإطار العام الذي يضم بين إهابه تجاربه الشعرية كافة، على امتداد أعماله منذ تعرف على القلم. وكل تطور في موضوع القصيدة ومناخها ليس إلا تطورا داخل هذا الإطار، كتغني بالوضع الفلسطينية، وتمشى مع مراحلها المختلفة، فإلى أي مدى يمكن وضع تجاربه الأخيرة داخل هذا الإطار؟ وبأية كيفية يمكن التعرف على هذه الوضعية في صوته الذاتي المرتفع النبرة؟ وما هي أهم قناعاته السياسية العامة التي أملت عليه ودفعته إلى انتقاء هذه التجارب؟ والتوقف بتأمل الشعرى عند هذه اللحظات الشعورية؟ وانتشالها من هلامية الشعور إلى نسق المعنى... وما هي ظروف الانتقاء الفني الخاصة به كإنسان؟ وهي ظروف بالضرورة لها سلطة الفرض والتحكم والإملاء كدوافع نفسية لا سبيل إلى مقاومتها أو التمرد عليها...

سنوات الإحباط:

من واقع كتاباته الصحفية في سنواته الأخيرة، يمكن أن نستشف صورة الواقع السياسي، التي تعتبر أحد العوامل الأساسية التي تدخلت في بناء رؤيته الوجدانية، لقد امتدت خريطة ردود أفعاله الشعورية بامتداد خريطة الوطن العربي، ليس لأنه ينتمى بواقع تفكيره القومي إلى الوطن الكبير شعوريا فقط، وإنما أيضا - لما لهذا الوطن من دور هام لتحقيق حلم المستقبل الفلسطيني، فعمان "طريقنا إلى القدس" وغير عمان كذلك من عواصم راكدة مستسلمة ضالعة قابعة في العجز لا بد أن تكون أيضا "طريقنا وسيلنا إلى فلسطين".

إن الإحباطات التي شهدتها المنطقة العربية، سواء تعلقت هذه الإحباطات بفلسطين أو بغير فلسطين، فهي تتعلق بها بالضرورة، ووجدت كل النكسات التي منيت بها الأقطار العربية منفذا إلى قلبه العربي، في فترة من أحلك الفترات التي مرت بالوطن الأم فالمنطقة العربية "تعيش في هذه المرحلة ليلا طويلا، لا تقطع أوصاله إلا أصوات القنابل والانفجارات والاعتداءات الإسرائيلية" ولقد تكررت النكبة بالنكسة، وما لم يصنعه الصهاينة في عام ١٩٤٨ تم إحرازه عام ١٩٦٧، ولقد تعرضت جماهير أمتنا عبر العشرين سنة الماضية إلى سلسلة من المذابح والمجازر على يد العدو الصهيوني، كما تعرضت هذه الجماهير ذاتها للمهانة والطرود والتشريد. على الأرض العربية، في الأردن، فمنذ ١٩٤٨ ومرورا بعام ١٩٥٦ إلى عام ١٩٦٧ قاسى وعانى المواطن الأردني والفلسطيني شتى أنواع البطش والإرهاب على

يد النظام الذى توج بطولاته عام ١٩٧٠ - ١٩٧١ بسلسلة من المجازر الدموية ضد الشعب الفلسطيني المكافح من أجل استرداد بلده وكرامته، "لقد كانت مجزرة أيلول ضد المقاومة في الأردن عام ١٩٧٠ (إعلان) لاستئناف حرب الاستنزاف الإسرائيلية التي لم تتوقف بقبول بعض الدول مشروع روجرز عام ١٩٧٠، فهذه الأنظمة ترى في وجود وبقاء إسرائيل مكسبا ومغنا لبقائها وذلك بسبب ارتباط مصالحها بشكل مباشر مع المصالح الأمريكية وبالتالي مع إسرائيل، إنما ضالعة بالمشاركة مع المخطط الإمبريالى".

إن الرسميين مهتمون بكل شيء، إلا بالمعركة وبالاعداد لها، والعناصر الوطنية مطاردة ومنبوذة أو معتقلة، والمقاومة الفلسطينية مهددة ومحاصرة، والأنظمة الرسمية التي تعبر عن مصالح طبقة معينة تمد يدها للعدو بالصدقة، والخبه وتنافر الصديق والأصدقاء، وليس هناك شعب من الشعوب ترك جواسيسه وعملاءه ومزورى تاريخه والمتآمرين على قضاياهم يمرحون ويسرحون ويرتكبون الإثم ويحكمون ويتصدرون المسئولية في مواقع الإدارة والتوجيه ومرافق الحياة العامة التي تقرر مصير الأجيال المقبلة مثل الشعوب العربية.

وليس هناك صورة أدعى لليأس مثل هذه الصورة التي يرسمها كمال ناصر، لأمة عظيمة تبادر بذبح أبنائها قربانا للاستعمار، وتزلفا للاحتلال، بل وتقدم على التضحية بشعب بأكمله، وبلد بأسره، في سبيل مرضاته، ومن أجل عيون مصالحه. وفي مقابل المناورات والادعاءات والتكتيكات العربية، يقف الكيان الفلسطيني عاريا في

شتاء المحنة، محروما من العون المادى والنفسى، مهددا بالخراب التى يفترض أن تقوم بمعاضدته ومناصرته.

إن ما يزيد من وطأة شعوره بالخيبة، ما توصل إليه بعد النكسة واحتلال إسرائيل للضفة الغربية لنهر الأردن، وسقوط مسقط رأسه - بيرزيت - داخل الأراضى المحتلة، من ان الجيل الذى عاش مأساة فلسطين منذ فصولها الأولى ليس هو جيل العودة إلى الديار المغتصبة والوطن السليب، وفي مذكراته التى نشرها بفلسطين الثورة "على صدوركم باقون" - يتوقف عند هذه المسألة، ويلح عليها "بدأت أحس بصغر وتفاهة آلامى وأوجاعى أمام آلام وأوجاع هؤلاء الناس، الذين قضوا عشرين عاما تحت الاحتلال الصهيونى واختلطت في ذهنى الأفكار وأنا استمع لخبية أملهم تتدفق مرارة من شفاههم، كما أنى كنت ألح العزيمة والإصرار والوعى من خلال كل ما قالوا... وخدمهم هؤلاء الناس ومعهم الثلاثمائة ألف فلسطينى الذين عاشوا العشرين سنة الماضية في ظل ما يسمى بدولة إسرائيل، وخدمهم الذين يعرفون كل شيء... وأحسست بعد مضى الساعات الأولى الأربع معهم بأننى تلميذ ابتدائى بسيط في دنيا المعرفة من واجبى أن أتعلم وأتعلم وأتعلم حتى أستطيع أن أدافع عن بلدى وأمتى وأطرد أعداءها من أرضها المغتصبة. واكتشفت عبر هذه الساعات الأولى أن حب الوطن مهما عمق وكبر في النفس لا يكفى مطلقا لتحقيق النصر، كنت أجلس في ركنى أستمع على غير عادة منى أكثر مما أتكلم، واختزن في ذاكرتى الفتية كل ما سمعت. أنقشه في خلايا عقلى

بإصرار لأطرد الكثير من الأوهام التي كانت تعيش فيه. وكنت بين
الفينة والأخرى أسرح بخيالي مع الحوار والنقاش الذي يدور في
أوساطنا نحن المحتلين الجدد، فأتذكر الفارق الكبير في التحليل
والتفسير في المعرفة بيننا وبين هؤلاء الناس. كما نراهن أحيانا فيما
بيننا. فيقول أحدهم سيخرج المحتل خلال ثلاثة أشهر، ويبرهنه الآخر
على ستة أشهر أو على سنة في الكثير الكثير... وحدهم هؤلاء الناس
ومن يمثلون من عرب ١٩٤٨ يعرفون بأن الاحتلال لن ينتهي، وأن
إسرائيل لن تخرج وأن إسرائيل لن تهزم إلا بشروط قاسية جدا. فهل
هذه الشروط متوافرة؟..

وفي قلب معمعان اليأس والشعور بالحياة، بدأ الاحتلال الإسرائيلي
يقتحمه في صميم تجربته الخاصة، وتلونت تجاربه بألوان الصدمات المباشرة
والمحسوسة بعيدا عن عالم المجردات، فلم يعد العدو بعيدا عنه، بل أصبح
يزاحمه على نسمة الهواء التي يتنفسها. إن تجربة مثل (حقير)، تلك التي
تجرع مهانتها مختبئا تحت السرير من السلطات الأردنية التي تلاحقه لإلقاء
القبض عليه، على كل ما أوقعته بكبريائه الحريص عليه من إذلال لا يمكن
أن تعادل مرارة التجارب التي بدأ يعانيها داخل الأرض المحتلة، وعن إحدى
هذه التجارب يتحدث كمال ناصر في "على صدوركم باقون" أدركت
أننى بالرغم من حريقى المزيقة التي أتمتع بها في بلدتى النائبة بعض الشيء عن
مراكز تحرك العدو ونشاط عناصره في التغلغل إلى كل ركن في المنطقة،
أدركت أننى في الأسر شئت أم أبيت، وأننى أعيش في السجن الكبير،
وأننى عاجلا أو آجلا سألتقى بأحدهم أو ببعضهم مصادفة، بدأ هذا

الإحساس يكبر في نفسى، واختلط هذا الإحساس بهول الحقيقة، وهو أنه لا بد من الالتقاء بهم. رؤيتهم للمرة الأولى هؤلاء الصهاينة القتلة أعداء أمتى ومحتلى وطنى، وأرضى، كان لا بد من الهرب بطريقة ما بالاختفاء بالتسلل، نفسى ترفض هذا اللقاء وتعافه، لست أخشى من شيء. فأنا أعرفهم تماما تماما. وأتصورهم وأفهم طبيعة حركتهم التوسعية ومع ذلك فلست أريد رؤيتهم.

وهذا موقف شخصى اتخذته خلال لحظات. وبدأت أفكر رغم جراحي ومرضى كيف أهرب وكيف أنجو من هذه الإهانة التى قد تصفنى بين لحظة وأخرى، وتدخل القدر فى صميم حريقى وموقفى الشخصى، كانت الدورية الإسرائيلية قد بدأت تقترب من التلة التى أجلس متداعيا فوقها، سألونى عن اسمى وعن هويتى فسميت لهم اسما وأشرت لهم أننى من تلك البلدة حاولوا أن يدخلوا معى فى حوار أى حوار. كانت الأرض تميد من تحتى ذلا وعارا. كنت على ما أذكر أتمتم لهم اننى مريض مريض وأكرر أننى مريض.... إحساس رهيب وتجربة هائلة سريعة غنية مارستها فى دقائق لا يعرفها ولا يفهمها إلا من مر بها أو عاناها، تجربة تركت فى نفسى آثارا وانطباعات كان لها ولا يزال لها ذيلها طيلة تجربتى الرهيبة فى ظل الاحتلال، وأدركوا ولمسوا أننى مريض، فذهبوا وقلت متجها نحو البلدة. كان العار وشئى الأحاسيس تلفنى... مشيت مطأطأ الرأس متحاشيا النظر إلى عيون الأطفال".

فى دوامة هذه التجارب العامة والخاصة تصدعت القناعات الفكرية والسياسية وامتدت الجراح إلى صميم التصورات الذاتية الحميمة،

حقيقة، أن الصورة العامة للواقع العربي صورة بالغة المرارة رهيبة الأمل، ادعى لليأس.

وحقيقة، فرض الواقع تسويق الأمل إلى أجل غير مسمى، في زمن ما بالمستقبل البعيد الذى يتجاوز عمر جيل النكبة.

وحقيقة، أن للتجارب الخاصة أثر مدمر، بطبيعتها التي تفوق طاقة الاحتمال. إلا أن كل هذه العوامل، على الرغم مما لها من أثر بالغ في إشاعة الأسى في نفس كمال ناصر وتجاربه الوجدانية، لم تكن بالعوامل التي دفعت بالتجربة الشعورية للانسحاب من الخارج والانكفاء على العالم الداخلى. أو على الأقل ليس بهذه البساطة المتناهية. فشاعر وطنى من طراز كمال ناصر يقدر مغبة الالتزام، ومشقة النضال، ووطأة الصعاب والمصاعب التي تعترض الطريق إلى تحقيق الهدف. وليس من الهين على مثل هذا الشاعر بروحه الصادقة الوطنية أن يتخاذل أمام الظروف والمتغيرات المختلفة مهما بلغت درجة مرارتها وما تبعته من يأس أو أسى.

ويبدو أن كمال ناصر قد اكتشف بعدا "دون كيشوتى" في شخصيته، ليس باكتشاف عدو موهوم كما في الرواية وإنما باكتشافه لأسلحته المزيفة، وللحرب المجانية التي خاض غمارها بهذه الأسلحة، وعانى نوعا من الاغتراب الذاتى نتيجة هذا الاكتشاف اللا حقيقى واللامجدى، وللطبيعة السيزيفية لتاريخه الشخصى. فمنذ أن طرد من حزب البعث، وانهارت الفكرة القومية المثالية التي كان يعول عليها، وسقط الأمل الفلسطينى الذى علقه على مشجب الأنظمة العربية تدريجيا، جردته الأيام فجأة من قناعاته

الفكرية والسياسية ببرود. فإرضة عليه أن يشق طريقه من جديد معدلا مسار الانطلاق وتكتيك التحرك. في الوقت نفسه الذى أمعن فيه النظر بأسف أسيف وحسرة قاهرة إلى نفسه، إلى هذا العمر الطويل الذى أضاعه هباء جريا وراء سراب خادع. وبالآلم تجراً على وضع ذاته تحت طائلة التناول النقدى والفحص، وأصبحت الذات فجأة موضوعا للوعى وللتأمل الوجدانى وللإستفهام الشعورى "قصيدة: الطيف الجبان" - "يا خجلى في المجد هذا أنا".

لقد فرض عليه طريق الكفاح أن يفتش عن قناعات جديدة وأفكار أخرى بصفة دائمة، ولقد خابت مساعيه باستمرار، وتجاوز أفكاره أبدا... إلى أن التحق في النهاية بالكيان الفلسطيني، وطور أفكاره باتجاه إستراتيجية الثورة الفلسطينية ومعتقداتها، والتزم بأيدولوجيتها.

لقد كان الواقع الفلسطيني أسرع في التطور من تطوره الفكرى، وهذا ما بدا واضحا من موقفه من الكفاح المسلح أثناء وجوده بالأرض المحتلة أعقاب النكسة، حيث كان يعمل على تنظيم الكفاح السلمي. وأن كان قد تمتع بالمرونة النادرة والإخلاص الشديد للقضية مما سمح له بالانتقال الفجائى إلى موقع الحركة الوطنية في نموها المتصاعد على طريق النضال، ومع هذا فمن غير المتوقع أن تتم هذه الإنتقالات الفجائية المصححة للموقف الشخصى دون ذبول نفسية أليمة، لها علاقة خاصة بتصوره عن جدواه ومدى فاعليته الفردية. والحق أنه كان يسلم تسلما بأن القضية الفلسطينية أكبر من قياداتها ومن أشخاصها، ويبدو أن تسليمه هذا إحدى نتائج تجاربه الفعلية وملاحظاته الميدانية لمواقفه، مع تسليمنا أيضا بصحة ما ذهب إليه.

وكما كان الواقع أسبق من تطوره الفكري، كان تطوره الفكري أسبق من تطوره الشعوري، ولقد جره هذا التطور إلى مزيد من التناقضات النفسية وهو ما سبقت الإشارة إليه في موقفه من القيم المسيحية، وفي ثورته وتألبه عليها، ورفضها، وإن كانت هذه أيضا نتيجة لمجموعة التناقضات الفكرية التي لم يحسمها من موقع نظري متماسك.

ولا ريب أن كل هذه التناقضات الأساسية جردته من التوافق النفسي والاطمئنان الروحي، وأبرزت حدة المشاكل النفسية التي بدأ يعانيتها، متوترا، وبالضرورة دفعه التوتر والقلق إلى طرح ذاته، باحثا عن الأمان المفقود، والاستقرار المطلوب والانتماء اللازم لعقيدة ولوطن، وهوية متماسكة ومؤثرة وفعالة، ولمصير واضح المعالم.

وتحت طائلة التهديد الخارجي المستمر سواء من المحتل الصهيوني أو الرجعي العربي، ارتعشت أعماقه بالرغبة في الحياة، دون أمل أكيد أو قريب التحقق. في الوقت الذي هو بمسيس الحاجة فيه إلى هذا الأمل، مجرد الأمل ليتعلق بقطار الحياة الغارب في إطار واقع لم يعد به شيء ثابت، أو أكيد أو حقيقي، أطاح بمجموع قيمه الوجدانية دون أن يوفر له الوقت لاستببات غيرها، لتملأ فراغه الروحي، وكساه بمجموعة أخرى من المعتقدات دون أن تتاح له فرصة للتوحد بها والتأقلم معها.

ومع مثل هذه المشاكل، من الطبيعي أن يطرح عالمه الفني سؤاله عن الوجود الإنساني بصفته الأولية، مهتما بلغز الحياة والمصير البشري.

مسألة الارتباط:

إن مشاعر الغربة على نحو ما هي الوجدان المؤلم لافتقار الارتباطات الحميمة بالحياة، وتحت شمس الأمل ظل كمال ناصر المتحمس للمستقبل متعلقا بإهاب الزمن الذي يأتي، مستمدا الحرارة والدفء والفاعلية من أهمية الآتى المشرق القريب. وكما أن الرياح لا تأتي دائما بما تشتهي السفن، انقطع الخيط الرفيع الذى يربطه بالمستقبل، ففقدت القناعات الروحية العميقة توازنها، واختل بناؤه النفسى، وتحطم اقتناعه بالوجود على صخرة حبه الجامح وعواطفه المحرومة.

حياة جافة هذه التي فرضها على نفسه كمال ناصر مترقبا يوم العودة إلى ملاعب الطفولة والأوقات الدافئة بالمسرات، يراوده شجن عميق اللهفة إلى الذوبان في جلجلة ضحكة طفلة تشرق في صحوة بيته وتدغدغ حواسه، حتى ضعف الأمل، وداهته الأربعون ثقيلة الوقع، وبدت على مشارف العمر مخايل الخمسين الكئيبة مؤذنة برحيل قريب، والطريق إلى يافا وحيفا وعكا والناصرة تعتوره المصاعب والعقبات، وبينه وبين البحر مزيد من الخيانات والأطماع والدسائس، ومزيد من العجز وعدم القدرة على شق السبيل وحيدا، وتحت هذه السماء المعتمة الملبدة بغيوم المهانة والخيانة انتشر مستنقع المشاعر السوداء تحت سطح الجلد.

"حبيبي

إذا ما أتاك الخبر

وصاح النعاه

يقولون مات الوفي وغاضت رؤاه
ونام العبير بحضن الزهر
فلا تبكى وابتسم للحياه
وقل لوحيدى، لأنى أحب وحيدى
أبوك رؤى شعبه
أضاءت دجى قلبه
وحطت على دربه
شظايا فكر
رأى الظلم يدمى رباه
فثار إلى مبتغاه
وكان شهيدا
وكل شهيد إله
وعمق من وحيها وابتكر
تسامى فلون معنى الصلاة
فسالت نضالا دماه
وماجت إباء رؤاه
قهرز مصير القدر

"الوصية الأخيرة"

تقدم الوصية الأخيرة، مفاتيح تفهم المرحلة الفنية الأخيرة لكمال ناصر، بكثير من الوضوح والإيجاز.

إن الموت الذى يختصه بالفعل الماضى (مات)، هو الحقيقة الوحيدة الأكدية الحدوث، أو الحقيقة الكبرى التى تذيل الوجود بعلامة استفهام، وترغم الحياة على روعتها للانحناء للتساؤل والدهشة. ولكن "الوصية الأخيرة" تقدم الموت ليس كفكرة مجردة، ولا كتأمل ميتافيزيقى منعدم الصلة بالواقع، فالارتباط وثيق بين فكرة الموت وبين الحياة، كمجموعة من العلاقات الإنسانية المفقودة، فالموت الطارئ مستدعى للإحساس بالافتقار إلى الارتباطات الحميمة، فإذا كان الفعل الماضى قد بلور مدى إحساس كمال ناصر بالموت كحقيقة دامغة ومؤكدة فإن الخيال الشعرى يضع هذه الحقيقة فى موضعها على تصاعد الخط الشعورى للتجربة كمستدعى لانتهاء العلاقات الإنسانية، وإحساس المرارة بهذا الانتفاء يصوره الخيال الشعرى متألماً بتوجيه النداء المستغيث إلى حبيبة لا وجود لها وإلى ابن موهوم، أي بارتقائه باللا حقيقى إلى مصاف الحقيقى، وبهذا التوجه يتحول مسار التجربة الشعرية من التدفق فى فم اللا معقول والغائى إلى مجرى المعقول والواقعى، بانتزاع الصفة المطلقة للموت وتقديمه كمقولة خاضعة للاعتبارات الاجتماعية أو السياسية "الزمنية"، وعرضه بهذه الحدودية داخل إطار التجربة الشعرية، ومن أسر الزمن (المعقول) ينبعث صليل قيود الغربة، لتغطى ضجتها أجواء المرحلة الفنية الأخيرة. كمرحلة متصلة بمراحلها الفنية السابقة، التى تأتطر بالأطر العامة، وبمعنى آخر يمكن تفهم مشاعر الغربة مهما كانت ذات صيغة أو حتى طبيعة وجودية، كوضعية فلسطينية تاريخية، شديدة الواقعية يضع كمال ناصر أناملنا عليها. كظاهرة عامة من خلال تحسس فردى خاص.

وإذا سلمنا بكل هذا، نكون قد توصلنا إلى المأساة الخاصة بكما
ناصر أن الصلة بينه - كشاعر على الأقل - وبين الحياة المبررة
والمعقولة صلة قائمة على أساس افتراض غير حقيقي، وحياته نفسها
بكل إشراقها النضالي بدون هذا الافتراض تتهاوى بلا معنى، أن الوصية
الأخيرة تستجدي قيمة المعاش والشخصي بالتمحك المستمر بالعلاقة
المفترضة التي تقوم بينه وبين هذه الزوجة والابن المتخيلين، فما كان
متزوجا، وما كان أبا، وجدواه رهين بوجودهما على نحو يثير الفزع، فلا
شيء يمكن أن يعادل قوة هذه العلاقة شديدة الخصوبة، حتى ولو كان
هذا الشيء مكانة اجتماعية مرموقة، أو وضع اجتماعيا مؤثرا:

حبيبي... إذا ما أتاك الخبر
وجاء الرفاق إليك
وفي مقلتيك بقايا حذر
ترفق بهم. وابتسم للجميع
فموتى حياة الجميع
سفحت ربيعي خريفا... ليبقى الربيع
وخليت أحلام شعبي عليه
أصلى لديه، وأحيا لديه
وبى نشوة المبدع
تزغرد في أضلعي
تعلمنى الحب في كل يوم
وتسرى كفاحا بروحي وجسمي

فأخلد في بال صحبي وقومي...
وأبقى على جفن زهوى وحلمي
وأبقى ببال الذكر

حبيبي
إذا ما أتاك الخبر
فخفت عليا
وسار الشحوب إلى وجنتيك
كسيرا نقياً شحوب القمر
فلا تجعله يطيل عليك
ليشرب من مقلتيك
لأني أغار عليك ضياء القمر
وقل لو حيدى
لأني أحب وحيدى
بأني تذوقت معنى العطاء
ولذ لقلبي جرح الفداء
ولم يبق مني إليه
سوى زفرة من نشيدى
وإشلاء عودى
تكوم في دارنا وانتشر

وقل لو حيدى، إذا زار قبرى
وحن لذكرى
بأنى سأرجع يوماً إليه
لأجنى الثمر

الحنين لأسرة، والرغبة العارمة في طفل، وجدان ذو صلة وثيقة في
تصور كمال ناصر بمسار القضية الفلسطينية، التي ترهب للنضال من
أجلها في سبيل عودة مستقبله، ولقد أدى اكتشافه بأن هذا المستقبل
يتجاوز حدود المتاح له من الحياة، إلى اغتناء الظمأ إلى الأطفال بأعماق
شعورية جديدة كظماً لتلمس المستقبل بأصابع جيل آخر من الأجيال،
وكظماً للظفر بفلسطين، بامتداد إرادة الكفاح وتوريثها للأبناء جيل
العودة، فتلهفه الإنسانى للخلود ينطلق من حس وطنى، وإن تمادى في
الانطلاق بعد ذلك:

ويعمر الزمان مرأ بطيئاً
وتموت السنون أثر السنين
وتعودين للسديار اشتياقاً
وحواليك من صغار البنين
وتعودين في المساء بدرى
تلمحين المساء فوق غضوى
وتطيلين نظرة لحطامى
في فضول كأنما تعرفينى

وتصيحن بالصغار فيمضى

واحد في سعادة يحتويني

(لحظة ظمأ إلى دنيا الأطفال)

ولا ريب أن مشاعر كمال ناصر حين توصلت إلى عقد هذه
الوشاح المتينة بين عالم الطفولة وعالم المستقبل، جلبت أهوالاً من الآلام
المعذبة وألقتها على عاتقه، بلورتها للمشكلة، لقد دارت حياته في فلك
القضية الفلسطينية على نحو كامل بشرطها العام والخاص، بل وبطغيان
الحياة العامة على حساب حياته الخاصة، ثم وفدت قناعاته الأخيرة
لتؤكد على أن انتصار القضية برمتها يتوقف على هذا الجانب الخاص
المهمل أيضاً، وليس فقط على ما بذله من نشاط عام. وتنبه مؤخراً إلى
أن الخطأ الذي ارتكبه بحماس وطني قد أخرجه من إطار المشاركة في
صنع مستقبل فلسطين العودة (لأجنى الثمر)، ومن ثم تحولت حياته
البيئة الخلل في تصوره إلى جرمية، ومست الإدانة المتألمة تاريخه النضالي،
فواقع تصوره الوجداني للنتائج التي حققها والنتائج التي لم تتحقق بدأ
يتحسس تفاهة الحياة التي مارسها في الوقت الذي لم يعد بمقدوره أن يمد
يدى التغيير لتصويب هذا الخطأ.

اعلم أنني انتهيت

لم يبق من أحبه

ومن يحبني

اللذة التي مارسها

في موكب العطاء والفداء
لم تعد تلهيني

وأنى انزلت
وانثيت
في لحظة زائلة
تشبهني
لشد ما تشبهني
ماذا إذا شكوت أو بكيت
هل تضحك الحياة لي
وهل يموج الحب في جداولي
وتورق الرؤى على خمالي
وهل تعود قدرتي على العطاء والفداء
ويستفيق الكبر في معاقلتي
ماذا أنا إذا شكوت أو بكيت
ما يظل لي
فلست أطلب المنى
فأنتى لم يبق من أحبه
ومن يحبني

ماذا أنا جنيت
يا حب ما جنيت
مستقعى يفرق بي
يشادوني
يشربني
وقبضتي مريضة تضربني
تضربني
تود لو أكون مثلما أتيت
كما أتيت... ..
لكنني لا أستطيع أن أكون مثلما أتيت
لأنني رأيت... ..
رأيت كل شارع وبيت ...
فانتهيت... ..
فلم أعد أحبه
مستقعى
ولم يعد يحبني
ولم أعد أهبه
ولم يعد يلهبني
وانتصبت جريمتي
تصلبني

(النهاية)

كان لهذا التطور الوجداني الأثر كله في تغير صورة البطل، ومفهوم البطولة عند كمال ناصر، لم تعد البطولة تعني التخلي عن الخاص (الذات) في سبيل العام فهذه الجناية المرتكبة تمس القضية المنشودة وتحول دون تحقيقها، أن البطل الفلسطيني يزداد غنى وفاعلية على مستوى الواقع، كلما كان أكثر امتلاء بالشخصي والذاتي، وانعكس هذا المفهوم على موضوع القصيدة، بتناولها للتجارب الذاتية والمشاعر الأشد خصوصية، دوغما حرج، وبتغير موضوع القصيدة وطبيعة التأمل تغيرت اللغة الشعرية، وبذل كمال ناصر محاولات عديدة لتطوير الأداء الأدبي...

* * *

لقد تناولنا مسألة العلاقات الإنسانية من جانب ارتباطها وتأثيرها على المستقبل، كانفلات للمستقبل من حاضر الأنا، مما جعل اللحظة الراهنة لحظة بلا امتداد، وبلا أمل، لحظة منقطعة الصلة بالآتي، بالتاريخ، ولحظة داكنة القتامة.

واللحظة الراهنة أيضا، لحظة نابضة بفجيرة أخرى "لأنني لم يبق من أحبه ومن يحبني"، لقد نضبت اللحظة الحاضرة من الصلات العاطفية، لا لعدم القدرة على الارتباط الحميم بالآخرين، ولكن للدهشة لعدم وجود هؤلاء الآخرين. إن تجربة شعرية بهذه القسوة، تجربة ملفتة للنظر، مثيرة للاستغراب، خاصة إذا كانت لرجل يقدر تقديرا بالغا للعلاقات الإنسانية، وأحد أحلى خصاله حرص على

إنهاء هذه العلاقات، والحفاظة عليها، فلقد كان ميالا إلى تجنب الصراعات الشخصية، متحمسا لتوكيد الروابط وهو السبيل الذي هيا له القيام بدور الضمير والوسيط الإنساني بين المنظمات الفلسطينية المختلفة والمختلفة، ولعبت خصائصه النفسية هذه دورها في تقريب وجهات النظر، وتلافي عوامل الخلاف والاختلاف بين القيادات المتباينة، وهو دور عرف به وسجل له، بل ولا أدل على تقديره البالغ للعلاقات الإنسانية من أنه برغم الأعباء والمشاكل التي ينوء تحت ثقلها، قد اختفى من الدوائر التي تعود ارتيادها، وعن جميع من تربطهم به علاقات زمالة نحو الأسبوع الكامل، تبين فيما بعد أنه قضاه بجوار أمه التي أتت لزيارته في بيروت، راهنا الوقت كله للتعلم بهذه الزيارة، ويبدو أن هذه الخصال هي المقابل لحسه المتعطش للارتباط بالآخرين.

لم يفقد كمال ناصر إحساسه بالآخرين، ولم يفقد قدرته على الحب، بل إن القدرة على منح الحب والإخلاص للعواطف، من الميزات الأساسية التي يتمتع بها. ولقد انضوت حياة كمال ناصر العاطفية على ما يشبه مأساة "بين ريتا وغيوني بندقية" فبعض الكتابات تؤكد غرامه بفتاة يهودية منذ الصبا الباكر "موللي" وأنه انتهز فرصة تواجده بالأرض المحتلة عقب نكسة ١٩٦٧ لزيارتها وربما أسقط قصته مع "موللي" على من أسماه صديقه "ع" في مذكراته "على صدوركم باقون".

إن تجربة "لم يبق من أحبه ومن يحبني" إذا بحثت من خلال الشعر الذى كتبه عن المرأة، وشعره العاطفى، قد تجد إجابة فيما فرضه على نفسه بعد النكبة، وتقف بنا قصيدة "ما أروع الشاعر ما أبراه" على نوع من التعفف القاسى الذى فرضه على نفسه، تحت تأثير تصورهِ للبطل كمثل أعلى الذى استمدته من التصورات المسيحية، وهو تصور يرتقى بالبطل إلى التشبه بالمسيح...

روضت باريس وأذلتها
ولم أضاجع في ثراها امرأة
وكنت ألوى دفتى كلما
أرى شراعى عابرا مرفأه
كتاب هو أحر ثائر
قلبتُه أبيت أن أقرأه
وقال صحى كلما أقبلوا
ما أروع الشاعر ما أبراه
أضاءه الطهر بالألائه
وانطفأ الرجس وما أطفأه

وأسلوب الشاعر في هذه القصيدة أقرب للتقرير الخبرى الحقيقى "لم أضاجع" أما الصورة الشعرية فتعكس ارتباطاته الوجدانية المحدودة، ويتبدى هذا في عدم توهج الطاقة الخيالية لعدم التجاوب العاطفى

الكافي مع الموضوع. فالصورة العادية الشائعة الاستعمال هي سمة مميزة في هذه القصيدة "كنت ألوى دفتي" ومن ناحية أخرى فالصورة المستحدثة بارييس "كتاب هو" تضع أيدينا على خشونة الحياة التي يمارسها، أما جزالة الموسيقى وتنوع الإيقاع فأقرب إلى الخفوت وإلى الأسى. ونادرة هي القصائد التي كتبها كمال ناصر عن المرأة، باستثناء قصائد المرحلة المبكرة من حياته، فخلال هذه المرحلة وجدت حيوية العواطف اليافعة في الرومانسية المعين الثرى الذى تنهل منه، وتنسج على منواله، أما في غير هذه القصائد فليس له إنتاج يذكر.

ومن الجدير أن نقف بالبحث ونحن ننظر إلى موضوع المرأة، إلى أثر افتقاد الشاعر للعلاقات الإنسانية على شعوره بأهمية الحياة وإحساسه بجمالها، ومثل علاقته بالمرأة مثل كافة العلاقات الإنسانية المحيطة به، ونقصد بهذه العلاقات الحميمة منها والتي تهتم بالجانب الإنساني بغض النظر عن كافة الاعتبارات الأخرى الخاصة بوضعه الاجتماعي أو السياسي، ولا يغيب عن الذهن أهمية هذه العلاقات في معرفته لنفسه باعتبار أن الآخرين شرط لهذه المعرفة للذات، وتبدو أهمية العلاقات الحميمة هنا من التغير الذى لحق بنظرته نحو نفسه كذات عامة أو كذات تمارس النشاط العام، أنكرت على نفسها ما دون ذلك من العلاقات، فبواقع هذه النظرة تبدى حاجته النفسية لعلاقة على جانب عظيم من الخصوصية تدعم اعتباره لذاته، وتدل خطواته إلى هويته الإنسانية، بعد أن أدرك مرحلية دوره العام.

وهو شعور ضخم من إحساسه الوجداني بمأساة الإمكانات الإنسانية
المشروطة بمقولاتي الزمان والمكان، في اتجاه آخر.

لقد بوغت كمال ناصر بتقديره الجديد لوضعه في الواقع، دون أن
تتهيأ له الظروف لإعادة توازنه النفسي بمساعدة الآخرين الأحياء، كما لم
يكن في العمر فرصة لتكوين هذه العلاقات، وما أشد حاجته إليها،
وتعكس الرؤية الوجدانية حدة الظمأ الذي بدأ يكابده متشوقاً إلى أحبه،
ولا ريب أن وجود هذه العلاقات كان قمينا باستعادته للهدوء النفسي
والشعور بالأهمية الذاتية والتوافق مع النفس، والحماس للحياة. فتقبل
الحياة يتوقف إلى مدى بعيد على تقبل النفس ولنقارن قصيدة "النهاية) لم
يبق من أحبه ومن يحبني" بقصيدة من قصائد المرحلة المبكرة:

هناك هناك على الرايبه

جنتت بليلى وجنتت ييه

هناك استحال الزمان عشيقين

لا يعبئان أنا وهيه

فلم يبق في الأرض شيء سوانا

فأشكو إليها وتشكو لييه

كأني همذي الدني آدم

وحولي تمرح حوائيه

هناك احتويت الغرام بريئا

بعيدا عن اللذة الفانية

هناك ضمنت الوجود وهمت
إلى الأفق تخطر آماليه
وأهدى لى الحب أحلامه
فراحت تعانق أحلاميه
هناك هناك على الرايبه
جنت بليلى وجنت ييه
فلم أصح إلا على همسة
من الغيب تسرى بأعماقيه
تتمم للقلب سر الحياة
فتبعثنى مرة ثانية

(إليها)

فعلى الرغم من أن هذه القصيدة تنتمى إلى قصائد المرحلة الأولى حيث لم يكن الشعر قد استقام له بعد، إلا أن لحظة الحب، لحظة معرفة الذات مع الآخر تعكس الثقة الزائدة بالحياة، وهى ثقة ذات تأثير فعال في استحضار الحياة بكل إشراقها وجمالها، ينهل وجدان الشاعر من أضوائها وعذوبتها الاغتناء والتعدد والامتلاء، من موقع قوة واحتواء للعناصر العديدة المتزاحة الباهرة، أي سطوة إنسانية كان يشعر بها آدم وهو يحتضن حواء، البشرية جميعها، امتلاك الوجود كله، والمستقبل جميعه زمن لا يعانى ولا يعبأ، سرمدى خالد، لحظة تتمم للقلب بسر الحياة، فيولد بصفة دائمة ويتجدد باستمرار.

هل هذه اللحظة هي ما كان يبحث عنه كمال ناصر، وما كان يفترقه، يبدو أن الأمر أيضا كان كذلك. لقد استدار استدارة كاملة برؤيته الشعرية متشوقا للحب والحياة برومانسية مستعادة، وحاول أن يجدد ارتباطه العاطفي بالآخرين دون طائل، محاولا بذلك توثيق نفسه بالوجود. إن الاستفسار المعذب الذي فُهم أعماقه عن سر الوجود في جنبي من أنا، ومن رمانى قسوة هنا" يولد رغبة عارمة للاتصال الإنساني "أظن أكتب"، ففي رسالته إلى أمه يندفع بتأثير حيرته في موكب الزمن، وغربته في الأهل والوطن وكل ما يحسه من الشجن، إلى محاولة العبور إلى ملاذها الحنون "فطالما إليك كنت أهرب... ما زلت أهرب"، ولم يكن ثمة علاقة ممكنة أخرى، وعاطفة متاحة أمامه غير هذه العاطفة، ليندفع إليها:

من لا مكان في الدين
في قمى الجريحة الوجدان والحنان
أريد أن أظن أكتب
أريد أن أمد حرفا بيننا من المنى
أعبره إليك في حنان
مستلهما من سره الصمود والإيمان
لعلنى إليك أقرب

أريد ان أعيد مولدى
أريد أن أعيده في الأبد ... فأنجب
أريد أن أنشق عن أمسى
وعن تعددى
وعن غدى
أريد لو أرق كالغمام في الرؤى وأعذب
أريد لو أبوح بالذى يموج بي ويصخب
مواسمى تعفنت
تأكلت
أحسها بي تنضب
أريد لو أسقى الذرى من سرها وأشرب
أريد لو تعبرنى الحياة ثائرا فأصلب
فقد مضى الشتاء بالربيع عنوة
وقد بدأت أتعب
وحدى على المدى، من لا مكان في الدين
إليك أكتب
أشد أوجاعى إلى وساوسى
وأكتب
وأكتب

(من لا مكان في الدين...)

لقد اكتشف كمال ناصر مفهوما للغربة متطورا عن مفهوم "هارون هاشم رشيد" لماذا نحن يا أبتى... لماذا نحن أغراب" لقد احتفظ هارون بما كان يعوز كمال ناصر من مشاعر قرابة (أبتى)، ولم تتجاوز غربة هارون حدود الاغتراب عن الأرض، أما غرابة كمال ناصر فإن فقدها للأرض يمثل ضياع الشرط الموضوعي، لتنامي المجتمع الإنساني بعلاقاته العاطفية، كما يمثل أيضا تدهور إحساسه بالحياة الحقيقية. لقد كف التاريخ عن تقديم فرصة الترابط العاطفي، وما توصلت إليه تجربته الوجدانية لا يمكن فهمه إلا من خلال منظور رحب للظرف التاريخي، فرفض كمال ناصر ليس للحياة وإنما لشكل الحياة المتاح والممكن، وهنا يكمن كل إحساسه بالاغتراب، أن المتمنى في التجربة الشعرية هو الحقيقي والصدق، أما المتاح والواقعي فهو اللا حقيقي المرفوض، ومن هذه الحدود يبدأ عدم انسجامه مع الممكن ورفضه لشروط الوجود كما هو قائم، وكما هو صعب التغيير بالنسبة لذاته لا للتاريخ، فكمال ناصر لم يفقد إيمانه بقدرته التاريخ على التطور إلى أحسن، ولم يفقد حبه لصناع هذا التاريخ أو يشكك في قدرتهم. ولا يمكن الادعاء بأنه عانى مشكلة حرية على مستوى ميتافيزيقي، فرويته الشعرية تتأسس حول اعتبارات عامة واضحة وظروف خاصة تنبئ على هذه الاعتبارات.

الفلسطيني التائه – والفردوس المفقود:

بدأت العلاقة العاطفية بين كمال ناصر والطبيعة، ككل قصص الحب المألوفة بنظرة "يا ملهم الكون فيضا من بشاشته.. أغراك في الكون ما في الكون أغرانا، عطر شجى وأشياء منمنمة... تفتت في المنتهى القدسي ألوانا"، لقد تملى من الطبيعة الفلسطينية فخلبت لبه، وأثارت مكامن فتون وافتان قلبه المرهف الحس، ولسنا بحاجة إلى سرد جمال اللجنة الفلسطينية، التي لا تستطيع أعمق الدراسات الجغرافية موضوعية وتجريدا علميا أن تخفى سحر طبيعتها الرائعة، بزيتونها وبرتقالها وجبالها ووديانها ومروجها وأهارها وصحاريها، لقد عشق كمال ناصر فلسطين، وتدلّه في حبها، كما تدلّه في حبها الجميع واستحوذت الأرض على صميم عواطفه قبل أن تستحوذ على مشاعره فكرة الوطن.

تبدو الطبيعة في التجربة الشعرية مصدرا للسعادة الكلية، وكشرط جوهرى للحظة الممتعة، وللتواصل الإنساني، وللتواصل للجميل، وتقترن الرغبات المتعطشة للبهجة متعجلة للاندماج بالظاهرة الطبيعية "هيا إلى الأحراج نستبق الضحى.. فنخلد الذكرى مدى الأيام". فاللحظات الإنسانية يستحيل تحقيقها بعيدا عن المباح الطبيعية، باعتبارها الجزء المتمم لهذه اللحظات، ولم يكن كمال ناصر يتصور بلوغ ذروة النشوة إلا عن طريق امتلاك الجمال الكوني، ومزج الحياة بالشعر الكامن في مظاهر الطبيعة المحيطة، وبغير هذه

المظاهر يفقد القدرة على الإحساس بالسعادة والتنعم بالحب والحياة،
وليس بغريب عليه أن يطلب العون في قصيدته "إلى بنت الطبيعة"
بنوع من المناشدة المتوسلة "هيا أعينيني" وأن تتصل المناشدة بأمر
يتمنى "نامى على حضن الطبيعة".

نامى على حضن الطبيعة نامى

يا سحر إلهامى وسر غرامى

نامى فقد نامت عصافير المسا

وتمتع العشاق بالأحلام

هيا أعينيني فقد بات الهوى

يستل من جسدى النحيل عظامى

(إلى بنت الطبيعة)

إن اللحظة الإنسانية لحظة آيلة للزوال، متداعية المعنى، ولحظة
جزئية غاية في الجزئية، لا ترقى لمصاف المطلق الخالد اللامتناهى، إلا
عن طريق انتشالها بأجنحة الطبيعة المطلقة الخالدة، إن خصوبة الحياة
الإنسانية الزائلة، خصوبة مضافة إليها، وليست نابعة من عناصرها
الذاتية، وما الحياة الجميلة إلا تعبير حرفى عن جمال الطبيعى الخالد
"انشدني فلست أصغى إليك.. إنما للسماء في شفتيك".

ومهما بلغ الفعل الإنسانى من أهمية، يظل فعلا خامل الأثر محدود
الذكر، إذا قورن بعظمة الحياة المستمرة، وحين يصبو الخيال الشعرى

إلى تبجيل الفعل الإنساني وتعظيمه، يلجأ إلى تشبيهه بعظمة الظاهرة الطبيعية "لك ذكر كالزهر يبقى جنينا.. في جبين الخلود ريان عاطر".

لقد بلغ كمال ناصر في تبجيله للطبيعة حد تأليهها، ومع هذا لم يجرفه التيار الشعوري لغمار التصوف، فالرؤية الوجدانية احتفظت بالعلاقة الجدلية بين الإنسان والأشياء، وظل للوعى الإنساني استقلاله المحفوظ، فتعذر عليه الذوبان في بحر الأشواق السرمدية، واستقرت التجربة الروحية بمجال التوازن بين طرفي معادلة الوعى: الذات - العالم، إن قشة الإنقاذ التي حملت التجربة الشعورية إلى بر الواقعية، أو على الأقل بالقرب من ضفافها، هي تقديره لدور الإدراك البشرى في عملية المعرفة الوجدانية، والتحسس الجمالى للعالم، فالعالم الخارجى لم يستقل ويفرض وجوده بصفة مطلقة، فاحتياج الأشياء لمن يدركها ظلل أطراف حرية الأشياء بظلال التبعية للوجود الإنساني، إن الطبيعة التي تمنح تستمد جماها من الخصائص المزاجية للواعى، ووجودها لا يتحقق إلا بالتقاء الدخيلة المدركة بالخارجى الكائن، أي بوجود الإنسان نفسه، كوعى وكحرية كإرادة وسيطرة تتحمل عبء المعرفة، وعبء مسئولية تنظيم العالم وفهمه، "لأجلك كانت الدنيا سريرا... فظلى فوق مسبحه الفسيح" و"مزجت دمانى بطهر الحياة... فراحت تثور بأعراقه، فلم أر إلا الجمال حبيبا... يعانق روحى واهوائيه".

تعقد التجربة الشعورية أواصر الصداقة بين الإنسان والطبيعة، وتلمى على هذه الصداقة روح الندية، وتحتفظ بالتأثير المتبادل لكل

طرف منهما على الطرف الآخر، وتفتنى التجربة الوجدانية بتيقظ صحو
للعالمين المادى والروحي، فتزهر المشاعر بأريج عطر وفريد، ويعكس
العمل الإبداعي هذا التآلف الحميم الوطيد بين الشاعر والأشياء، فكما
أن "الطير قد غنى ورنم ضاحكا... لما رأى العشاق في استسلام" نجد
الشاعر في تجربة أخرى يتعذر عليه الغناء وسط طبيعة متجهمة ضنينة:

سار عند الغروب عبر الجنان
شاعر الحب والصبأ والأمانى
يتحدى الإلهام يأبى عليه
ويغنى فتزدرية الأغاني
ما له اليوم أنكرته رؤاه ..
ما له اليوم قد جفته المعانى
هام في الروض يستثير سناه
فإذا الروض معرض متوانى
(الطبيعة المتجهمة)

أزهر الإنسانى بأحضان الطبيعة، كما أزهرت الطبيعة بأحضان
الإنسانى، ولم يتوقف كمال ناصر عند حدود المعاينة الوجدانية المتعاطفة مع
سطح الظاهرة الطبيعية وصفا متعلقا بالتناسق الذى تتجلى به هذه الظاهرة،
على غرار "خلع الربيع على غصون البان... حللا فواصلها على الكئبان،
ونمت فروع الدوح حتى صافحت... كفل الكئيب ذوائب الأغصان" فلم
يعتن كمال ناصر بالظاهرة مستقلة عن الحياة الإنسانية.

تنامت معطيات التجربة الوجدانية مع حركة الواقع، وتأثرت بالأحداث المتتالية، وبعد مرحلة الصبا، انفصمت عرى الحجة الساذجة المسرورة بالظاهرة الطبيعية، وتلون المشهد الخارجي بالمأساة، وتطورت الصيغة الإنسانية للظاهرة وجدانيا، لا كتوصل للإنسانى، وإنما كمحتوى واقعى. فالتأمل الجمالى للطبيعى يترع الحجاب عن الجمال التاريخى للمشهد، ويبرز مدلوله الوثيق بالهوية الفلسطينية، والوعى الفنى الذى يؤصل الجمال مازجا شروط الجميل بجوهر المقاوم.

تلك حيفا فقفا بما يا جناحى
لا تصفق فى درهما المستباح
وأخشع الآن رهبة فى ذراها
فعلوها من راعشات جراحى
تلك أكامها الحسان الغوالى
مشرفات على السهول الفساح
راويات للمجد ملحمة المجد
أساطير نخوة وصلاح
هو ذا الكرمل المطل على
البحر صمود لعاصفات الرياح
صلبته أوهامه فى ذراه
بين شلقى هزيمة وكفاح
خالد رغم أنفه واللىالى
فى روايته خالداً الطماح

لم يهن والسنا يموج بعظفيه
ويزرى بالغاصب المجتاح
يا رباه السكرى بأخيلة الشوق
ولفح النوى وحر البراح
مقسما بالشرى الجريح على
الأرض يروى بالحق حمر الأفاحي
(أنشودة الحقد)

لقد طغى الحس التاريخي على وعيه بالعالم، والتعدد الخصب لمظاهر الحياة تقلص للمرور من سم المأساة، وسبق سوقا باتجاه القضية بالجاح وبصفة مستمرة، وأنتجت شاعرية كمال ناصر أروع مراثيها التي تتغنى بالأرض الفلسطينية، نابضة بألم عظيم، عازفة على أوتار الشجون الدامية، وتوثقت علاقة الشاعر بالأرض بالحرمان منها. قبل أن ينفصل عنها وتنفصل عنه.

من خلال المأساة ألمح يافا
كسراب يمشى إليها الجليل
ومن الظلمة الرهيبية يبدو
جبل القدس عانقته الخليل
حرم للجمال مد ذراعيه
فعز العناق والتقييل

إلى سراب خادع، خبت أضواء يافا، والقيمة الجمالية التي سحرت
لبه فرغت من محتواها، وأفعمت باليأس والألم، واكتشف كمال ناصر
شراك الخداع التي وقع بين برائنها وجدانه، فبقدر ما توثقت علاقة
الأرض والظاهرة الطبيعية بالتاريخ بقدر ما أطرده إحساسه بالغبرة،
وبالاغتراب الشعوري عن هذه الأرض، فهذا هي يافا الساطعة، تسعى
إلى سيدها الجديد، تنيله من ثمارها الناضجة ما سبق وأرخصته له، وليته
يستطيع الكف عن حبها، أو الاشتياق لها والحنين إليها.

تلك يافا الشهية الضرع تبدو
كبرياء في غمرة الأضواء
لم يزل يرتقاها يتهدى
فوق أغصانها بأسخى العطاء
ناشر في جناحها الحمر عطرا
مشرئبا بالخير والأنباء
عز في قبضة الغريب ذبولا
فانتشى في برائن الغرباء
(أنشودة الحقد)

لقد هجرته فلسطين، دون أن تأسو على جراحه، وحيث لا يمكن
لأرض أخرى أن تملأ خياله وتشبع عواطفه، أن القصائد التي كتبها عن
أي أرض أخرى ورغم قلتها، قصائد تفتقر للحماس، خابية العواطف،
إذا ما قورنت بتسبيحه الشجي بفلسطين.

أدى تطور الطبيعي إلى المدلول التاريخي إلى انفصام الرابطة الجمالية بين الذات والأشياء، ففي المنفى تحسس كمال ناصر مشاعر العجز، وتوهجت إرادة العودة بلا معين من قوة، فالحرمان الذي يعاينه تعبير مؤلم عن الرغبات التي لا يستطيع أن يحققها، أنه حرية منقوصة، ومس القنوط أعماقه مسا فتدهورت القيم النبيلة التي كان يتغنى بها، لم يبق غير الحقد، وبخروجه من أرضه بدأ رحلة التيه والضياغ، لم يبق من شيء إنسانى بأعماقه غير حب عظيم اكتوى بناره، كنه لبلاده منتظرا اليوم الذي يعود فيه.

أيها الشاطى الجريح بصدري

لا ترفرف بالعجز في مقلتي

لست أقوى على الجيء هوانا

أو تقوى على الجيء إليا

بيننا اليوم هوة من عذاب

فغرت شدقها ضلالا وغيا

عمق الشوق جرحها في خيالي

وأراها تميد شيا فشيا..

كيف نجتازها وأنت جناح

سرقته الأقدار من جانحيا

وعلى أصغريك من ذل عمري

خفقات تحيا على أصغريا

نحن في الذل توأمان أضعاء
خافقا نابضا وثغرا شهيا
أنا حسبي والبحر يصخب فيا
قطرات عزت على شفيا
لست أقوى على المسير لقلبي
شدني رهبة إلى قدما
وتسمرت بين أجفان حقدى
وترا أخرسا وحلما شهيا
يا يدي المديدين إليه
ناء عبء الحنين بين يديا
واعترى موكب الفراغ عياء
فتهاوى يأسا على ساعديا
صلبتني هواجسى وظنوني
نظرة عبر رمله تتفيا
فالدموع التي تسيل حنينا
بين عينيه خضبت وجنتيا
فكأنى وقد بكيته عليه
في سعي الحرمان أبكى عليا
أيها الشاطئ المشوق إليا
أنا أهواك باكيبا مبكيبا

وعويلا يشدو على أذنيا
وهديرا يئن في مسمعا
فكلانا في البال حلم نبي
مات في أرضنا ليقى نينا
ومصير على جراح الأمان
وسنمضى له سويا سويا
(حرمان)

عن امتداد هذه التجربة، يحدثنا كمال ناصر، في مذكراته "على صدوركم باقون" كان البحر هو أول شيء أريد ان أراه، وألمسه، فالبحر بالنسبة للذين كان قدرهم أن يقطنوا في المناطق الجبلية وهى بقية ما تبقى من فلسطين بعد هزيمة ١٩٤٨ يمثل شوقا خاصا، وحنينا عجيبا، عبر عنه شعراء المرحلة أروع وأخصب تعبير، الشاطىء والساحل والفردوس المفقود والبحر السليب وغيره من التعابير..

كانت الشمس تأذن بالمغيب... كل شيء هادئ وشاحب وكتيب إلا البحر الذى كان يرغى ويزبد ويصخب بشكل يلفت النظر، وغير مألوف... خيل إلى أن البحر يرفضنا ويرفض مجيئنا، وكأن أمواجه تبصق في وجوهنا احتقارا واستهانة وخفة بنا.. اعترانى شعور كتيب، اصطدم بكل الحنين الذى يجيش بصدري للبحر، وشعرت بضيق وأنا أسير نحوه لأمسح وجهى بمائه المالح المر، وأبكى.. وأبكى.. وأبكى..

ويعود كمال ناصر في صفحة أخرى من هذه المذكرات ليلخص هذه التجربة ويركز على نتائجها، فحينما بدأ يمسخ المدينة "يافا" حيا حيا، شارعاً شارعاً، سمع كل حجر يجهد ويسأل ويشتم.

لقد انقطعت أواصر الصداقة الحميمة بينه وبين الأشياء، ولم يعد يأنس السعادة والبهجة والخلود في مظاهر الطبيعة المحيطة، ولم تعد تملأ مشاعره بأحاسيس الانتماء والارتباط والقوة والإنسانية، لقد توقفت الطبيعة عن إسعاده وأصبحت مصدراً للتوتر والقلق، لمشاعر العجز واحتقار الذات، ومن الزرع التاريخي اتجه التأمل لا إلى اكتشاف الجميل بل لاكتشاف الدميم والقبيح والمؤلم، تخلت الأشياء عن سحرها وهجرتها، وفرغ الكون من حيويتها، وابتلعه فراغ العالم ليواجه الوجود متعرياً من الألوان والدفاء والحرارة وتحسس بمزيد من الانقباض توحده ووحدته وضياعه:

أنا أنسيت في الرمال وسادى

والصغير العظيم من أشيائى

أنا أنسيت عند بحرك قلبى

صامدا للعذاب ييكى ورائى

أنا كلى لديك عار نزوحى

لم يخلف معى سوى أشلائى

(أنشودة الحقد)

وبالتدرج، يتحول الخواء الخارجي، إلى خواء داخلي "شاهت معاني الكون واختلطت في خاطري حتى تشوهت" وافتقار العالم للتعدد والألوان والروائح افتقار للمشاعر والأحاسيس والعواطف، فمن ترى "يملاً الفراغ بقلب.. هجرته الأنداء والأزهار"، ومن قلب هذا الخواء المعتم ينبض سؤال المصير، عن معنى الوجود، إلا أن نور الوعي لم يكف عن إضاءة جوانب التجربة الوجدانية بذباله ضوء شحيح، أن العودة للفردوس المفقود عودة إلى الذات الضائعة المقهورة، ف"لو تستجيب الأرض ثانية... يخضر في عمري لها نبت" ففي قلب التائه ظل جزء صغير كل الصغر يقاوم، ويناقش، يرفض ويتحدى، باحثاً عن الأسباب متعلقاً باستماتة بحال أمل يائس في مستقبل غائم المعالم غير واضح الحدود.

تناقضات كونية:

طموح كمال ناصر الإنساني طموح فائق للمألوف، يتعدى كل المقاييس المتعارف عليها لحدود العقل. إن رغبات كاليجولا في القمر تعد رغبات متواضعة إذا قورنت بوجدانيات كمال ناصر، ففي الخمسينيات، وقبل أن تتكثف مشاعر الغربة، يظهر في قصيدته "أذاكر بلدتنا القديمة" (١٩٥٨)، جانباً غريباً من تصايبه البشري للإلهي، هذا التصابي اللامعقول الذي تحد من جنوحه الصياغة المنطقية للقصيدة، والتنبه المدرك الذي احتفظت به رؤيته عن استحالة تحقيق الخوارق لقد كان يعي أنه "لا يستطيع" وإلى هذا الوعي يعود الفضل في انتشاره من المصير الذي انتهى إليه كاليجولا، فما الذي كان يريده على وجه التحديد، ويعي في الوقت نفسه عدم قدرته على تحقيقه.

" لو كنت أستطيع
أن أسمر الربيع
في جوانح الحياه
في غفلة عن الإله
أعقده بمنزر الخلود
فيستوى الخلود للجميع"

.....
لو كنت أستطيع
أن أصلب الزهور في الحقول
شهية لا تعرف الذبول
فأسكب العطور في جفونها
خالدة تعبق بالذهول
والشوق والفضول

.....
لو كنت أستطيع
أن ألمم النجوم
من يادر الغيوم
أنثرها في دربنا الشقى بالوجوم
وأن أمد مخبى للردى
أفرق المجهول في دنيا الردى
أعيد للقلب الذى هوى وجيبه

لقد تميز دائما، بخصوبة المشاعر التي تضيق بالناموس الكوني الصارم، وتتمللمل بمعانقتها من قيود الأبعاد الأصلية، وبالجرأة على تأمل ما وراء الأسوار اللامجدية، وإن اتسمت مغامراته الوجدانية بمراقبة عقلية حذرة متوقيا الانزلاق إلى مهاوى العدمية.

لقد كان له صلف الكبرياء العنيد فاحتفظ لنفسه بدور المراقب الواعي المدرك، دون أن يتنازل ليضع ذاته محلا للتجريب والممارسة والوعي الفاحص، وبلا ريب هي غفلة جميلة منه، أن يسمو بنفسه متجاهلا صفته البشرية متناسيا أنه لا يتميز عن هؤلاء الناس الذين يطلب لهم الخلود، ويتمنى إنقاذهم من النظام الوجودى الباتر، وغاب عن ذهنه أن يدرك زيف الموقف المتعالى المتكبر والموهوم اللائذ به من الطوفان.

ولظروف موضوعية وخارجية بحتة. آن الأوان ليحنى هامته النبيلة لنصل الزمن، فتجرى دفعة واحدة ومباغثة على المنحر، فيدرك ماهيته الزمنية إدراكا مفاجئا قاتلا "أنا عشر من السنين طوال... تائهات في غيبه الظلماء"، لقد ارتد نهر الزمن إلى صدره، متوقفا عن التدفق في مجراه المألوف والمعتاد، وغير المحسوس. وبدأت الرؤية الوجدانية تنوء تحت ثقل جسامته الشعور بالزمن، بالانصرام والموت، وتلفت إنسان كمال ناصر بدهشة خائفة يتلمس المعنى في دوامة الزوال والفاء القادم.

ما العمر.. ما معنى الوجود ولم

جئنا جميعا لم أنا جئت؟

ما البذل ما معنى الفداء وهل

تسمو الدين لو كنت ضحيت؟

ما المجد ما التاريخ أصنعه

هل كان يجدى لو تكللت؟

البعث والأيام والموت

ما البعث والأيام والموت؟

(البعث والأيام والموت)

توثبت وحوش المشاعر الحبيسة منطلقة من أقفاص المنطق، وبدأ يعى نفسه كإرادة متعذرة، وحرية مستحيلة "من غير إذن كان لى جسد بل قبلما كونت أعدمت، حسى من الدنيا ولهفتها.. أنى بدنها وما شت" (٧)، إنما مجرد لحظة انتظار لا أهمية لها متوترة بين لحظتى الميلاد والوفاة، "عمرى انتظار" (٨)، وبهذا الانتظار الكابى انعدمت الرغبات وانفتت الإرادة، وانهار النظام الرتيب المعقول للوجود، وبدأ الهزلى والمضحك فى ثنايا الحياة البشرية الزائلة، كما أنه جريمة إنسانية "فى كل تمثال يطل الله والإنسان، يستغفران فى دوامة الأنا... جريمة الدنى.. جريمة الإله والإنسان" (٩).

الحقيقة الوحيدة التى تبقى عليها التجربة فى عالم الوهم هى الموت، فأى علاقة حقيقية من الممكن أن تربط بين ذات هشة وعالم فان، الذات كاختيار دائم لبدائل تتساوى فى الأهمية، كحرية لا مجدية، وأى

(٧) قصيدة البعث والأيام والموت.

(٨) قصيدة انتظار.

(٩) قصيدة المتحف الكبير.

مشروع جدى يمكن أن تمارسه الذات، وكل مشروع فعل وكل فعل مستقبل، وكل مستقبل فناء ما قيمة الكد والتضحية والفداء والعناء، أمام الموت المتربص الواثق من التهام فريسته، وبأنهيار صرح القيم فقدت الدنيا ألوان العظمة والجلال القديم:

لم يبق للدنيا وقار

لم يبق للدنيا وقار

المجد

والتاريخ

والأحلام

عصفور وطار

فمضيت في جنباتها

بالوهم أفتعل الحوار

لأقابل الدنيا بوجه مستعار

لا شيء يربطني بأعماق الوجود المستعار

(انتظار)

ياصرار يتم قبول إنسان التجربة الوجدانية للشرط الوجودى المحجف " لكننى أسير خلف لعنتى، أسير خلف ظلى^(١٠) يحملنى الضياع عنوة، وشهوتى للسير، للزوال للرحيل " إن مدركاته لللاحقيقة الكبرى ولأفعاله المزيفة (ظلى) لم يمنعه من أن يغز السير باتجاه الموت، محاولا أن يجد تبريرا ما، متلمسا العزاء وأعطافه المتشوقة للخلود تبذل محاولات

(١٠) قصيدة: رسالة من دوفيل.

يائسة لترع الجرثومة من القلب، ولكن هيهات، فمحاولات كمال ناصر لتبرير مجانية الوجود الإنساني بالنسبة له لم تتعد حيز التمنيات الشقية البائسة، لقد حرم من أساليب التعزية البسيطة "أريد أن أعيد مولدى، أريد أن أعيده في الأبد، فأنجب" لقد كان هذا مجرد حلم سقيم، تنازل عنه سريعا، منصرفا إلى محاولة تجديد ارتباطه القديم بالعلاقات الاجتماعية، المرأة - الحب، المرأة - الأسرة، ولما أعوزته حيل وإمكانيات كازانوفيا توصل إلى المرأة - الأم، ويبدو أن العلاقة الأخيرة على الرغم من توافرها "فطالما إليك كنت أهرب" لم تستطع أن تحقق الأمان الروحي المطلوب وأن تقدم له المبرر الكافي لقضاء العيش، لقد سبق له تجريب الذوبان في الطبيعة "أريد لو أرق كالغمام في الرؤى وأعذب"، إلا أن حساباته أرجأت هذا الحل إلى حين، ولما أعياه البحث "قد بدأت أتعب" توصل إلى الفن "لعلنى في الحرف استعيد حريتي، وصبوتى وما أحترق، من جسدى الأسير في القيود"^(١١)، لقد نظر فيما مضى إلى الأدب والفن من ناحية تأثيره الاجتماعى باتجاه القضية العامة، ولقد شعر وقتها بمسئولية الحاجة إلى من يسمع صوته ويتجاوب مع نبراته. شاعر جاءكم جريح الأمانى... رب جرح يسيل من أوطانه، فاتركوه يرتل الشعر شوقا... ويحى النبوغ في إخوانه"^(١٢)، لقد تحول الفن من عطاء عظيم في سبيل الآخرين، إلى منة يقدمها لذاته أولا واضعا في اعتباره مشكلته الخاصة قبل أي اعتبارات أخرى.

(١١) قصيدة من لا مكان في الدين.

(١٢) قصيدة الزعامات والشعب والطين.

إلى أي مدى انساق إنسان كمال ناصر وراء وجدانياته، التي تحتم عليه التماذي في الانفصال، ورفض المهزلة الكونية، كما هو متوقع طبقاً لتصورات المنطق العبثي، هنا يبدو كمال ناصر مختلفاً أيما اختلاف، بوعيه لبواعث وأسباب تغربه الروحي وعذابه النفسي. وتطورت رؤيته الوجدانية في اتجاه مضاد عن طريق هذا الوعي.

عالم كمال ناصر عالم قائم - في مدينة الزمن بمنطقها اللامعقول، إلا أن ما يكشف من وطأة شعوره بالعبث واللاجدوى، الطلاق البائن بينه وبين الأشياء، المكان والأرض، لقد فقد اتصاله بالوطن المضيع، كما أن أحلامه في أرض الميعاد تميّات بعيدة التحقق بالنسبة له لظروف واقعية لم تغب عن تصوراته، وكيف يشعر بالانتماء إلى التجمعات الإنسانية، وهو المنتمى إلى مجتمع الشتات بلا وطن، وفي أي أرض يمد جذوره وهو المنفى عن جميع الأوطان، المغترب عن جميع الأماكن، لقد حرم من الانتماء إلى أرض، ومن علاقات اجتماعية تتأسس على هذه الأرض، وفي رسالة من دوفيل، تبلور تجربة الغربة حول قدرته على النظر إلى العالمين، المعقول واللامعقول في آن التأمل الشامل، إن الارتباط بمكان لا ينتشل الوجود الإنساني من التردى في هوة العبث كلياً، وأن كان الانفصال عن المكان يؤكد على الحس العبثي ويقويه، ومواطنو دوفيل خاضعون بالضرورة لشرط الوجود الإنساني المبدئي، خطواتهم تائهة على مفازات التاريخ البشري، كما أنهم لحظة آيلة للزوال ككل الناس، وحقيقة مزيفة وحرية أكذوبة، ومع ذلك فهم سعداء، يستمدون البهجة من انتمائهم السحري المسرور لأرض ولوطن.

حبيبتى

أكتب من دوفيل ...

أنا بها، ولست فيها أنى

بالرغم عنى عابر دخيل

لا لغتى تسعفى، ولا غربتى

تنحنى في وحشتى الدليل

الناس كالنجوم في الغيوم تختفى وتنجلي

تمضى، ولا تمضى إلى سبيل

تسير في الأرقام. في دوامة الزحام ... لا هية

تحسبها كأنها تسير للمجهول

لكنها سعيدة الخطى، في درهما الطويل

لا عريها يجرحها، ولا تاريخها المستوحش الذليل

تستوعب الحياة لذة في عمرها القليل

وتحبس الشكوى لدى أعماقها

وتحبس العذاب والبكاء والعويل

تضيع في دوفيل

تستمرى الممات مثلما ... تستمرى الحياة في دوفيل"

ليكن الاختلاف بين كمال ناصر ومواطنى دوفيل أن هؤلاء احتفظوا

بمواطنيتهم بينما فقد هو مظلته، مظلة الوطن أو "المظلة الضائعة" كما

شاء أن يسميها، ومظلة الإيمان ومظلة العواطف على تباينها وتعددتها.

وتسبب ضياع مظلته في ازدياد حدة مشاعره بالمأساة الكونية. ومن

وعيه بمأساة المصير الإنساني ووعيه لأسباب تغربه الروحي ازدوج عالمه، إنه يعشق نفسه، ويرفضها، يرفض العالم ويقبله، يخيفه الموت ويقبل على التضحية يدرك وحدته ويبحث عن التواصل، يقر عجزه ويعلن النبوة، يكتشف قيوده فيتمرد عليها، تتحطم أسلحته فيقاوم ولا يستسلم.

و كنت أدرى أن ذاتي هشة تلجمها القيود
وأن روحي في أسارها الحتمي لن تجود
لكنني أردت أن أكون ... أردت أن أكون
أردت أن أنشق عن عجزى فأعبر الأتون
أردت أن أعيد مولدى بالموت من جديد
(النبى العاجر)

لم تفارق القوة صوته، ولم يستسلم لوهن، ولا يصل بتجاربه الشعرية إلى الحدود التي تتكرر للإنسان كإمكانية، وكفعل ممكن بصفة مطلقة، ولم يخس الإنسان قدره، فإنسان كمال ناصر حين يحتفظ بالزمن، يحتفظ بالوسط الموضوعى الذى يسمح للإرادة الإنسانية بالنمو، والتحقق، فزمن التجربة الشعرية لكامل ناصر ليس هو زمن فارس "صلاح عبد الصبور"، "هل تدرى في أي الأيام تعيش، هذا اليوم الموبوء هو اليوم الثامن، من أيام الأسبوع الخامس في الشهر الثالث عشر" فالفارس القديم حين يتحلل من الزمن، يحطم بمنطق البناء التصورى لمجموع تجاربه الشعرية القدرات والعواطف الإنسانية كافة، فالرغبات تتحول إلى أمنيات لأنها بعيدة المطال في السماء، والتمنيات تتحول لوهم باستوطانها أعلى الهضاب، والأوهام تصير أحلاما بعد أن تفقد كل صلة لها بالواقع،

فلا تطرق سور النفس، إلا حين يظلم المساء، كأنها أشباح ميتين من أحبابنا، والأحلام ما تلبث أن تصبح ياسا قائما وعارضاً ثقيلًا، فالفارس القديم مدحور مستسلم لاندحاره، لا نكاد نستشف بارقة تعارض بينه وبين ذاته. إن كفره بالحياة، كفر بالقيم التي تمكن الإنسان من السيطرة وامتلاك العالم، "أهدابنا أثقل من أن ترى، وإن رأيت فما يرى العميان، أقدامنا أثقل من أن تنقل الخطى، وإن خطت تشابكت ثم سقطت هزأة كبهلوان" أما كمال ناصر، فإن الهوان الوجودي لم يذل كبرياءه، والكبرياء هو كل ما بقي من حطام الإنسانية في يده ولكنه مظلة بلا غطاء، لقد ظل مرفوع الهامة منتصب القامة يتحدى فكرة الشر التي بنى الله على أساسها العالم "أردت أن أروض الفناء والبقاء والقدر" ولكن ... لنعترف به نيبا كما أراد، ولنقدر معه أنه نبي عاجز، يبشر بدعوة مستحيلة، حيث لن يتمكن من إنقاذ البشرية من الشر المطلق الأصيل في طبيعة الوجود، وأنه أسرف فيما يريد، وهو الذي لم يعد يطلب المنى، ولا عادت المنى تطلبه، وماذا بإمكانه أن يقدم من حلول للمعضلة البشرية الجوهرية، يجيب بها على الصيحة المتعذبة بأعماقه "تريد أن تكون. فلتكن وأنقذ البشر. وأنقذ البشر" فعلى صخرة القدر كان لابد أن تتحطم النبوة وأن يقترب النبي بطموحه المجنون لحرية مستحيلة الحدوث:

"وصرت أدرى عندما أتيت لا يسترنى الرداء في مدينتي

لأحزم الحياة في البركان

أنى سأنتنى، أعود لا يقبلنى أحد

وعدت من مدينتي مدينة الضلال والجحود

قلبي على أشلائها وكبرها المؤرود
لأسمح بالرؤى في داخلي تفلسف الزوال والوجود
ماذا أردت أن تكون؟.. ماذا أردت أن تكون
فردد الصدى في داخلي.. أردت أن أكون.. أردت أن أكون
ماذا أردت أن تكون

..

هل أنت ما تريد؟ هل كنت ما تريد"

(النبي العاجز)

إن رغبات ذلك النبي للمنح والبذل والعطاء على هذا المستوى
الوجداني، رغبات فاشلة وأمنيات عسيرة، تجبره هو نفسه للاندماج في
المصير البشري المعتم، فيتعرف على ذاته غير المتميزة عن القطيع البشري،
الذي يجتر تاريخه على مسرح الكوميديا الإلهية "هنت في ملعبه وهان،
واغتال لي براءتي فلم أعد إنسان، لم أعد إنسان" وعلى هذا المستوى أيضا
يتجرد الإنسان من إنسانيته من عظمتته، وجلاله وكبريائه:

"نحن الحشرات

لا نعرف شي ... لا ندري شي

تتراقص فينا الآلام

والأوهام

وتمر علينا الأيام نحن الحشرات

لا نعرف شي

نأتى للدنيا أصفارا
ونعود فترجع أصفارا
لا نعرف شى
لا نعرف شى
(البهلوان الأعظم)

إلا أن التجربة الشعورية التي توصلت بازدواجية الرؤية إلى مسئولية الله والإنسان عن التعاسة البشرية، استطاعت أن تقدم الأبواب السوداء المغلقة والمحكمة الإغلاق، والتي تحطمت خلف رتاجها الموصل كثير من التجارب الوجدانية. لقد بنى كمال ناصر نتيجة لوعيه الثنائى بمأساة الوجود عالمه على فكرة الشر، كفكرة مركبة من المطلق والمحدود، أما الشر المطلق فلقد انتهى بالإنسان إلى الحشرية، والحيوانية بسلبه القدرة على الاختيار الحر، فالكبرياء البشرى مهما بلغ في رفضه لبرودة مصيره الحتمى ليس بمقدوره التنصل منه أو التمرد عليه، إلا أن الجمال الذى لا يمكن تحصيله من الأبدى يمكن تحقيقه في الزمن المتاح للإرادة، إن التجربة الشعرية تبدأ لا بالتصدى للصفة الأزلية الشريرة للوجود وإنما للبنية الأقل شرا، للوجود كمعطى إنسانى، كجريمة إنسانية - كمجتمع - كواقع متاح رهين بإرادة الثورى لا النبى.

وواقع المدينة الإنسانية هنا واقع حيوانى، إنها مدينة قائمة على استغلال الأقوياء للضعفاء، الجائرين للمستسلمين للجور، مدينة طافحة بالشر والجريمة، إلا أنها تأنس لتناقضاتها، وتضمها، وتستكين لمزيفى إرادتها، راضخة لمستعبيها:

١- وجئت للمدينة الجحود أطرق الأبواب والجدران

فلم أجد أحد

وسرت في الخرائب الشكلى على قارعة الزمان

لا يبصرني أحد

ذرائب يرعى بها الضباب والدخان

تناثرت من حولها الذئاب والقطعان

فاعتنق الضدان

وعششت في صدرها الديدان والغربان

والتحمت كأنها جسد

(النبى العاجز)

٢- المتحف

الحب في محرابه يستمرئ الطغيان

المتحف الكبير صولة وصولجان

المتحف الكبير خطبة ومهرجان

دبابة وديديبان

أسطورة لفقها الدعاة خدعة وحاكها الكهان

وزيفوا في كل ركن غامض جثمان

ودفنوا جثمان

(المتحف الكبير)

تؤكد التجربة الوجدانية لكمال ناصر، أن السعادة البشرية ممكنة، وأن سعادته ليست متعذرة، لقد أصبح يتمنى عالماً كدوفيل، للحظقي الحياة والموت على أرضه نفس الوقع السار، والاطمئنان الزائد بالانتماء لأرض تصون البقاء، وتحفظ التاريخ وتمنح المعنى، وتوفر السعادة، "لا شيء مستحيل" فالجنة التي يصبو إليها جنة ليست بعيدة عن العين، وليست مستعصية على اليد، كائنة حيث لا وجود للمنفى وللخيمة، وحيث لا وجود لتناقضات، ولا محل لاستكانة. إنما الفردوس المفقود فردوسه المفقود.

يطل عالم كمال ناصر على مشارف اللامعقول، ويقع عند أقصى حدود الممكن ويكمن هنا سر عذابه الذاتي، لقد عرف نفسه كئيب عاجز، وتطلع إلى نفسه كثورى، وفقد هويته الوطنية والكونية، وضاعت خطواته الطريفة في صحارى الزمن، منبوذاً من كل وطن وواصل عطاءه "من لا مكان في الدين" غريباً عن الناس، متشوقاً إليهم، وسقط عمره وذوت أوراق الشباب "وانطفأ المصباح لم يبق فيه زيت" وفي قلب العتمة ظل الضوء الأخضر الشاحب، الأمل اليائس المتكبر المعاند يلقي بشاعة المختق على أرض الأموات، هذه الأرض التي تتنفس بالاغتراب، والتي تتهدج للموت بسؤالها عن الوطن والأهل.

"وبينما أسير في مدينة الأموات

يقتلنى الضنا

تجرحنى ال "أنا"

وكبرياء العجز فاته في موكبي النجاه
لحت طيفا ينتهك الفنا
يدب كالسنا على الدين
ألقيت نفسى أعب الفلاه
أمشى خلفه
ألقيت نفسى أعب الحياه
أسير كالإيمان في مدينة الأموات
أجيش بالوجود والمنى
لحت طفلا ... عمره سنه

(الضوء الأخضر)

وبوعيه بأسرار اغترابه، جاهد للخلاص، وانضوى تحت حركة
السلاح، محاولا استعادة علاقاته الجمالية بالعالم، وارتباطاته الاجتماعية
في العالم، ناشدا العودة إلى أرض اغتصبت، ووطن فقد بضياعه وحدته
النفسية، وانكفأ على ذاته يجتر الجراح ويعلنها ذائبا بمصيره في المستقبل
الإنساني "فموتى حياة الجميع" وجاهد... وجاهد، ولم يكف عن الجهاد
إلى أن استشهد.

القاهرة ١٩٧٦م

الفهرس

٧ زمن الشهادة
٩ - الإنسان والقضية
١٣ - سنوات المراهقة
٢٤ - النكبة
٣٣ - الأردن على الصليب
٣٩ - النكسة
٤٢ - زمن الشهادة
٥١ الحس الطبقي
٨١ الفكرة القومية
١٠٣ المسيحي المنشق
١٠٨ - مشكلة الفن
١١٩ - محنة أخلاق
١٣٣ غربة الملتزم
١٤٢ - سنوات الإحباط
١٥٠ - مسألة الارتباط
١٦٨ - الفلسطيني التائه - والفردوس المفقود
١٧٩ - تناقضات كونية

